الباب الثاني

الجسور التي عبرت منها الديانات والفلسفات القديمة إلى التشيع

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الاول

استيطان العرب للبلاد المفتوحة

في عهد الخلفاء الراشدين تم فتح العراق والشام ومصر وبلاد فارس، فأقام بعض الفاتحين في هذه البلاد، ولما كان القليل منهم ذا ميول علوية، يفضلون الإمام عليًّا، وهذه الحقبة اتسمت فقط بالتشيع السياسي للإمام علي، دون ظهور أي معالم من عقائد الشيعة إلا القليل منها، وهؤلاء وإن كانوا قلة فقد كان لهم بعض الأثر على سكان البلاد المفتوحة، حيث يمثلون أوائل انتقال التشيع السياسي العربي الأصل إلى البلاد المفتوحة، ولأهمية ذلك يمكن تتبع هؤلاء وأثرهم على النحو الآتي:

أولًا: في البصرة

من أوائل من ذكر من المتشيعين للإمام علي، عبدالرحمن بن الأشعث الكندي، وقد كان أبوه قبله من رجال الإمام علي، وهو الأشعث بن قيس رئيس قبيلة كندة، الذي اشترك في حرب صفين مع الإمام علي، وله مواقف مشهورة، وقد جاء عبدالرحمن بن الأشعث من الكوفة إلى البصرة قائمًا بحركته ضد الأمويين؛ وتمثل قبيلة الأزد تجمعًا كبيرًا في البصرة، ومنهم بنو ضمرة الذين خرج منهم محمد بن نصير النميري البصري، وقيل: إن النميري لا علاقة له بالأزد، بل هو من موالي بني صعصعة، وكان للنميري شأن كبير في التشيع، وسوف نفرد له مقالة في موضعها؛ والبلعميون في محلة بني تميم لهم شأن في التشيع، فمنهم البلعمي أحد وزراء الدولة السامانية، وهو جد بني نوبخت من الشيعة، وإليهم ينسب النوبختي صاحب كتاب فرق الشيعة، وهو من أوائل الكتب المهمة في الفرق ومقالاتها وأسباب انقسامها، ومن البلعميين هؤلاء، محمد بن جمهور العمي (نسبة إلى العميون) البصري، وإليه تنسب فرقة الغرابية الشيعية من الغلاة، وكان شيخًا لإسحاق الأحمر من مؤسسي فرقة الغرابية في المدائن، حيث جاءت إليها من البصرة، وقيل: إنه من سلالة الأشتر النخعي في الكوفة، ومن رجال الإمام علي المشهورين، وهو كذلك شيخ لفرقة العزاقرة الشيعية من الشلمغانية في البصرة، ومن البيوت المشهورة في البصرة

الربعيين الساكنين في محلة عبد قيس، وكان زعماء هؤلاء من فرقة الجارودية الشيعية، (منهم الحوثيون في اليمن الآن)، وكانت علاقتهم بالفرس وثيقة لارتباطهم بالمرزبان في الأهوار، وقد ذكر الإصطخري بأن المرزبان كان والد لزوجة الحسين بن علي، كما ذكر الإصطخري أن لهم صلة نسب بالصحابي سلمان الفارسي، وذكر أن زيدًا رئيسًا لبني عبدة من بني صرحان، كان أحد تلامذة سلمان الفارسي، كما ذكر أيضًا أن رئيس قبيلة عبد قيس جاء من البحرين، وهو الجارود الذي أسلم على يد سلمان الفارسي، وقد نشأت فرقة السليمانية بين عبد قيس في البصرة، وانتقلت أفكارها إلى المدائن، وهي تنسب نفسها إلى سلمان الفارسي، ومن الذين عرفوا بالتشيع المغالي عبدالله بن وهب السمداني سنة ٣٦ هـ، وقد رحل بعد ذلك إلى المدائن، وتصفه المصادر بأنه سبئي متطرف، وقيل: إن من آثار التشيع في البصرة هي انتقال التشيع الإسماعيلي إلى نجران والأحساء عن طريق رحلات قبيلة كندة، وفيما بعد انتقل هذا الأثر الشيعي البصري إلى خراسان وهراة ومرو وماهان، حيث استوطنت هذه المناطق من قبل قبائل عربية بصرية، ومن المعلوم أن أفكار الديانات السابقة في كل هذه المناطق عبرت إلى الشيعة بوسائل مختلفة، فهذه المدن كانت هي الجسور التي أمدت أولئك القوم بالفكر السبئي[١] [٢].

أثر محمد بن نصير النميري في نقل الفكر الأجنبي إلى الشيعة (٢٦٠هـ)

ذكر عنه النوبختي في كتابه فرق الشيعة أنه كان من أصحاب الإمام الحسن العسكري، وكما ذكر النوبختي أن النميري هذا قد ادعى النبوة، وقيل: إن فرقة النصيرية من الشيعة تنسب إليه، ومن الذين تأثروا بأفكاره محمد بن جندب والحسين بن حمدان الخصيبي، ومن الأفكار التي نسبت إلى النميري هذا أن روح الله قد حلت به، وذكر عنه أنه يعتقد بألوهية الإمام الحسن العسكري، وأنه قال بإباحة المحارم، ونسب له النوبختي القول بحلية نكاح الغلمان، كما نسب إلى فرقة النصيرية، ونسبت إليه القول بتناسخ الأرواح والألوهية للأنبياء والأئمة، وأنه يؤمن بتناسخ الأرواح، وهي فكرة مأخوذة من

(١) ماسنيون: خطط البصرة.

(٢) المجلسي: البحار، (٢٢/١٣).

الديانة الفارسية القديمة، حيث تدخل أرواح الموتى بدورات من السنين معذبة أو فرحة، ونسب إلى النصيرية عبادة السماء والقمر والنجوم، وأنها متجسدة في حقيقة الإمام علي، وسنتعرض إلى نشأة مذهب النصيرية في الشام وأثر النميري وأتباعه في نقل بعض الأفكار الزرادشتية من إيران إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط. خاصةً في كل من اللاذقية وأنطاكية وصور وصيدا إلخ[١].

ثانيًا: في الكوفة

تنقل كتب الشيعة القديمة أساطير كثيرة عن الكوفة وأرضها بوصفها أرضًا مقدسة للأنبياء؛ ذكر منهم إبراهيم ودانيال ونوح والخضر وغيرهم، ولكن أهم تجمع للشيعة كان من قبل الأشاعرة من مدحج القبيلة اليمنية، وقد هرب كثيرون منهم بعد فشل ثورة عبدالرحمن بن الأشعث في الكوفة على الدولة الأموية فاستوطنوا في العديد من مدن فارس، وخاصة مدينة قم، فنزل أشاعرة الكوفة على بني عمهم من المرازمة الأشاعرة، فكان المرازمة من الشيعة المعتدلين، ولكن غالبية أشاعرة الكوفة كانوا من الغلاة، فحصل بين الفريقين اختلاف وتصادم نتج عنه طرد أولئك الأشاعرة المغالين إلى خارج قم، فذهب بعضهم إلى كاشان وتفرق الآخرون بفارس، بعد أن نبتت جذور تشيعهم في الكوفة من قبل الغلاة من السبئية، وخاصة بعد مقتل الإمام علي رضي الله عنه، وقد تعالت أصوات القبائل اليمنية مطالبة بتسويتها في قسمة الفيء مع من يسمون بأهل العالية من قريش والأنصار، وقد ذكر أن الأشتر النخعي كان من أوائل المعارضين والمطالبين بحصة أكبر من سواد العراق، حيث كان القرشيون يحتجون بأن سواد العراق بستان قريش. من الجدير بالذكر أن الإمام عليًّا في خلافته قد ساوى في توزيع الفيء على المقاتلين، ولكن بعد مقتله أرجع الأمويين سياسة التقسيم حسب الأسبقية في الإسلام، فالأوائل من المهاجرين والأنصار لهم الحصة الأكبر[٢].

---

(١) فتحي الزغبي: غلاة الشيعة، (ص ١٣٤-٢٦٠- ٢٦٢).

(٢) ياقوت الحموي، (٥٤٤/١)، (٤٨٠/٢)، (٧١/٣)، (٣٣١/٤)، (٧٨٣/٤). الطبري: تاريخ، (٨٥٤/١-٨٥٥)، فتوح البلدان، (ص٢٨١)، أحمد صالح العلي: امتداد العرب في صدر الإسلام، (ص٢٧- ٢٩).

ما يدور في جبانات الكوفة

يبدو أن بعض أفكار التشيع قد نبتت في جبانات الكوفة، وذلك فيما يدور من صراعات كلامية في أحقية الإمام علي في الخلافة، وفيما حصل من مقتل الخليفة عثمان، ثم حرب الجمل وصفين والمخالفين من موقف معاوية من كل ذلك، ففي رواية أبي مخنف أن حجر بن عدي الكندي وعمرو بن الحمق الخُزاعي وعبدالله بن وهب جاؤوا عليًّا وسألوه عن رأيه في أبي بكر وعمر بن الخطاب فانتهرهم وأسكتهم، وتشير بعض المصادر إلى شرطة الخميس، وعلى رأسهم الأصبغ بن نباتة؛ فتذكر إحدى الروايات عن الزهري أن شرطة الخميس كانوا بإمرة قيس بن سعد بن عبادة، حيث كانت لهم خصوصية في القتال مع علي رضي الله عنه يوم صفين، حيث عاهدوه ولزموه، وبعد مقتل الإمام بويع ابنه الحسن، وبعد الخلاف الذي دب بين القبائل لم يبق مع الحسن إلا القليل، ثم أظهرت بعض القبائل عدم رضاها عن تنازل الحسن لمعاوية، ووصل الحال لبعض الشيعة أن لقبوا الحسن (مذل المؤمنين)، وقد تمخض عدم الرضا بحركة حجر بن عدي الكندي ضد أمير الكوفة[1].

الكوفة مركز من مراكز التشيع

تمثل الكوفة أهم مركز من مراكز انتشار التشيع، تمثل ذلك في العديد من الحركات والثورات العلوية والشيعة ضد الدولة الأموية والدولة العباسية، بدءًا بحركة التوابين بعد مقتل الحسين، ثم حركة عبدالرحمن بن الأشعث، ثم ثورة المختار بن عبيدالله الثقفي، وثورة زيد بن علي بن الحسين، وغيرها من الثورات، وأن أكثر الذين شغبوا على والي الكوفة سعيد بن العاص كانوا من قبائل يمنية، وبالرغم من أن الوالي شتت رؤساءهم خارج الكوفة، إلا أن هؤلاء الرؤساء كان لهم أثر في انتشار التشيع، فكانت الكوفة تمثل لهم رأس الحربة للمعارضة السياسية منذ زمن الخليفة عثمان، نتج عن ذلك وضع الصراع في الكوفة والعراق عمومًا بين القرشيين والأنصار من جهة، والقبائل اليمنية من جهة أخرى، وقد انتشر التشيع السياسي في الكوفة بين عموم الناس، بل انتقل أثره إلى رواة الحديث في

(١) د. الجعيط: الكوفة، (ص٤٠٩)، الطبري: تاريخ، (٩١/٦)، ابن الأثير: الكامل، (٤٠٤/٣)، د. إبراهيم بيضون: اتجاهات المعارضة في الكوفة، (ص ١٨-٢٢)، حركة المختار، هند أبو شعرة، (ص ٣٤)، وما بعدها.

كتب الثقات من السنة، ذلك ما روي أن عمرو بن ثابت البكري الكوفي (١٧٣هـ) وهو من التابعين، ومن موالي قبيلة عجل. قال عنه أحمد بن حَنْبَل، كان يشتم عثمان رضي الله عنه وترك ابن المبارك حديثه، وقال عنه الساج: إنه مذموم، وإنه كان ينال من عثمان، كما ورد عن عمرو بن ثابت أنه كان يعتقد بردة الصحابة وكفرهم إلا أربعة، وقيل إلا خمسة. ومن الرواة الذين ورد عنهم في الكوفة إسماعيل بن خليفة العبس (١٦٩هـ)، روى عنه الثوري ووكيع، وكذلك ورد اسم يونس الثوري قال عنه البخاري: إنه منكر الحديث. وقال عنه أحمد بن حنبل: إنه كان خبيث الرأي، وإنه متأثر برأي ابن سبأ. وشيوع أفكار السبئية في الكوفة واضحة، حتى عمت بلواها إلى بعض الرواة والمحدثين، حيث ورد في كتب الرجال أن من أسباب رد حديث الرواة أن ذلك الراوي كان يؤمن برجعة الإمام علي إلى الدنيا.

وما نقلناه أعلاه نموذجًا وأمثلة من أفكار رجال كانوا غالبًا من الموالي، ومن أصول غير عربية أو كانوا عربًا متأثرين بالأفكار الأجنبية، حيث تبنوها واتخذوها معتقدًا تكون على إثرها الكثير من الفرق والمقالات، وهذا أحد مقاصد هذا الكتاب: أن تلك كانت الجسور الأولى التي انتقلت منها الأفكار اليهودية والمجوسية والنصرانية. إضافة إلى أن التشيع منذ أوائل تكوينه كان العامل الاقتصادي أحد أسبابه، فقد كان أهل العالية من القرشيين والأنصار يتسلمون حصة أكبر من العطاء، وهذه السياسة يبدو أنها شكلت بعض الأسباب التي استغلها الشيعة السبئية من القبائل اليمنية، حيث كان دخولها إلى الإسلام متأخرًا.

وأهم المساجد التي كان يعظمها الشيعة في الكوفة هي: مسجد السهلة، ومسجد جعفي، ومسجد الحمراء، وهو لغير العرب (الموالي غير العرب)، وقد اتخذت القبائل اليمنية في الكوفة لها جبانات، وهي أماكن تتجمع فيها القبيلة لتنفيذ أغراضها الخاصة، وتبدو أنها تقليد نقلته معها من اليمن، ومن غير المستبعد أن الحسينيات المنتشرة عند الشيعة خاصة في العراق هي تطور عن تلك الجبانات التي تعد من المراكز لنشر التشيع وأفكاره[1].

(١) محمد بن يحيى بن أبي بكر الأندلسي: التمهيد والبيان في مقتل عثمان، (ص ٤٧)، وما بعدها، دار الثقافة ١٩٨٥. محمد مال الله: ابن تيمية: العصبية القبلية والإمام المظلوم (ص ١٢٣)، وما بعدها. عثمان بن عفان. الطبري: تاريخ، (٥٠٥/٤)، الجعيط: الكوفة، (ص ٤١٦)، ماسنيون: خطط الكوفة.

ثالثًا: انتقال أوائل الشيعة إلى بعض البلاد المفتوحة

(أ) العرب في أذربيجان

سكن بعض العرب أذربيجان في أواخر خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وفي خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد فتح العرب حصنين مشهورين: أحدهما في مراغة، والآخر في أردبيل. واستوطن كثير من العرب هاتين المدينتين، وكان أكثرهم من قبائل يمنية، خاصة من قبيلة كندة وقلة من بني وائل، ويعود السبب في ذلك إلى كون الأشعث بن قيس الكندي واليًا على أذربيجان، (عينه الإمام علي في خلافته) في هذه الحقبة، ومن المعلوم أن الحسن بن علي بن أبي طالب كان قد تزوج ابنة الأشعث، وبطول إقامة هؤلاء العرب في هذه المنطقة فيما بعد أصبح الجميع ناطقين بالفارسية منذ القرن الثالث الهجري، بل ربما أصبحت ثقافتهم فارسية، فقد ذكر أن محمد بن بعيث من بني وائل كان شاعرًا بالفارسية، ومنذ مطلع القرن الثالث الهجري كان في أذربيجان، وخاصة بلاد الديلم وهم شيعية زيدية. وفي القرن السابع الهجري اعتنق بعض الأتراك من القرى هذا المذهب، واستوطنوا هذه المنطقة قادمين من صحاري بلاد المغول.

(ب) العرب في قم وكاشان

يعود وجود العرب في قم وكاشان إلى زمن الفتح الإسلامي حيث سكنت هذه المناطق بعض القبائل العربية، خاصة من مذحج والقادمين من الكوفة بالعراق، وبعد ثورة عبدالرحمن ابن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي في الكوفة سنة ٨٠ هـ على الدولة الأموية كان شيعة العراق والكوفة خاصة هم عمود هذه الثورة، وقد ناصر هذه الثورة كثير من الفقهاء، حيث لم يتضح بعد مذهب التشيع، ولم تتشكل مبادئه وعقائده، وكان أهم المناصرين الشيعة لهذه الثورة كميل بن زياد النخعي، وهو من رجال الإمام علي بن أبي طالب، واستمرت هذه الثورة أكثر من سنتين في العراق إلى أن تصدى لها الحجاج بن يوسف، وهزم جيش ابن الأشعث في معركة الجماجم قرب الكوفة، وتشتت جيش ابن الأشعث، وهرب بعضهم إلى إيران، ولكنهم تركزوا في قم، وكان أغلبهم من النخع والأشعريين. يقول ياقوت الحموي:

إن قم استخدمها العرب أيام الحجاج سنه ٨٣ هـ وأهلها شيعة إمامية[١]، وقد عرف شيعة قم وكاشان بأنهم من غلاة الشيعة، وأنهم عاشوا في ظل التقية قرونًا يكتمون مذهبهم. ونقل عن جلال الدين الرومي في كتابه المثنوي: أنك إن كنت في مدينة كاشان، وكان اسمك عمر فلن تجد خبازًا واحدًا يبيعك الرغيف[٢].

وفي سنة ١٥٠١م. استقبل سكان قم وكاشان الجيش الصفوي بالأفراح والأهازيج، وأقاموا الاحتفالات، ونشطوا مع القزلباش في تعقب أهل السنة لإجبارهم على البراءة من الصحابة، أو أن يقتلوا، ولم تسلم حتى مدينة سمنان من بطش الشاه إسماعيل بالرغم من أن أهلها زيدية.

رابعًا: الشيعة العرب في الشام

بعد ثورات العلويين والشيعة أيام الدولة الأموية والدولة العباسية هرب كثير من شيعة الكوفة، خاصة إلى المناطق النائية عن مركز الدولة، فكان منهم في جبل عامل بلبنان وفي حلب والإسكندرون، وكان أكثرهم من غلاة الشيعة المطلوبين للدولة، وذكر بعضهم أن منهم من كان من القرامطة والإسماعيلية[٣].

وكان يسود في الشام المذهب الحنبلي؛ ولذا نشأ التشيع في الشام سريًّا ومغاليًا. وقد اتُّهم شيعة الشام بمساعدتهم للصليبين، وتعرضوا لنقمة المجتمع الحنبلي خاصة، وقد أعدم الشيخ شهاب الدين السهرودي بالشام في ظل تلك الأجواء.

كما اتُّهم شيعة الشام بمساعدة المغول في احتلالهم البلاد، وفي كتابات الشيخ ابن تيمية رد فعل كبير ضد الشيعة عمومًا، يوضح الخلافات القائمة في ذلك الوقت. ونتيجة ذلك أخذ كثير من الشيعة في الهرب إلى أماكن بعيدة في الجبال، وخاصة تلك التي يسكنها المسيحيون، مثل جبل عامل بلبنان، وبعد إخضاع العثمانيين الشام قام السلطان سليم بتهجير كثير من شيعة الشام، وخاصة حلب إلى الجانب الأوروبي من الدولة العثمانية،

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، (٣٩٧/٤)، أمير حسين خانجي: إيران الصفوية، (ص١٤٤).
(٢) صالح العلي: امتداد العرب في صدر الإسلام، (ص٣٠- ٣٥)، ط٢، ١٩٨٣م، بيروت.
(٣) أمير حسين خانجي: مصدر سابق، (ص ٣٣٥).

وهؤلاء وجدوها فرصة فيما بعد من أجل الذهاب إلى الدولة الصفوية المناصرة للتشيّع، ويرى الدكتور أمير حسين خانجي في كتابه إيران الصفوية[١] أن جميع فقهاء إيران منذ البداية وحتى القرن الحادي عشر الهجري كلهم كانوا من العرب، وعلى الأخص من القبائل اليمانية، فأغلبهم جاء من العراق وما نسب إلى طوس وطبرس، إلا لأنهم سكنوا تلك المناطق، ويرى أن ابن بابويه القمي صاحب كتاب (من لا يحضره الفقيه) عربي من أهل الكوفة، وأن محمد بن يعقوب الكليني صاحب كتاب الكافي عربي الأصل عراقي، بل لم يذهب إلى إيران، وكذلك الشيخ الطوسي محمد بن الحسن الطوسي صاحب كتاب التهذيب وكتب أخرى كثيرة في المذهب، وكذلك الطبرسي صاحب التفسير المشهور كلهم عرب لم يكن أي منهم إيرانيًّا، وكذلك يرى أن علماء شيعة الإسماعيلية هم عرب، أمثال ناصر خسرو القبادياني، وحسن الصبَّاح عربي، من قبيلة حمير اليمنية، الذين كانوا في الكوفة، ويرى في المقابل أن أكثر علماء الإسلام المشهورين بإنتاجهم الفقهي والحديث والفلسفة هم من الإيرانيين (غير الشيعة).

وعلماء الشيعة في العراق كانوا عربًا أمثال الشريف المرتضى والشيخ المفيد (محمد ابن محمد بن المعلم ٤١٣هـ) فهو من قبيلة حارثة اليمنية، وكذلك هو الذي أصل المذهب الاثني عشري هو وتلميذه الشيخ محمد بن الحسن الطوسي، والشيخ المفيد جيء به إلى اصطخر منفيًّا من الأمير الديلمي بهاء الدولة، ولكنه رجع إلى بغداد بعدئذ.

وفي خوزستان كان شيعة عرب إمامية معتدلون يسمون بالمشعشعين، وقد جاؤوا من مدينة واسط بالعراق أوائل الحكم الصفوي، وسكنوا أول الوقت (الهويزة)، ولكونهم معتدلين فقد آذاهم الشاه إسماعيل بقزلباشه وبطش بهم، وينقل خانجي عن (حسن روميلو) أنه قبل العصر الصفوي لم يسكن في إيران أي مؤلف كتاب شيعي، ويرى أن أول كتاب فقه عرفه الشيعة في إيران هو (قواعد الإسلام) لابن المطهر الحلي، الذي كتب في العراق، ونقل إلى إيران وكان يعلمه للشيعة القاضي نصير الله زيتوني، وقام فيما بعد الفقهاء العرب الشيعة القادمون من لبنان بتدريس الكتاب للشيعة الإيرانيين. وكان أول

(١) مصدر سابق، (ص ٣٣٨).

هؤلاء العلماء هو علي بن عبدالعالي الكركي من مدينة الكرك جنوب لبنان، فقد بدا يكتب ويفتي للقزلباش بتعهد طهماسب بمساعدة نعمة الله الحلي والشيخ إبراهيم القطيفي القادم من الأحساء[١].

وتولى كل فَقِيه شيعي عربي قادم من هذه الأماكن رئاسة جماعة من جماعات البراءة، التي كانت تدخل تحت حماية أحد القزلباش، ودخل هؤلاء العلماء في منافسة بينهم على الأموال المنهوبة أصلًا من السنة، وانتهت المؤسسة الدينية بانتصار الكركي، وهرب القطيفي إلى الأحساء ونعمة الله إلى الحلة، وانتصر جناح العلماء اللبنانيين، واختفى الشيخ الكركي عند الشاه طهماسب الشاب الصغير (ولي الإمام الغائب)، فكان أول تأصيل فقهي في إيران يُمنح للشاه. ولقي بهذا خطوة عند طهماسب، وأضحى رأيه لا يرد، ومن هنا راج سوق فقهاء الشيعة اللبنانيين، ويرى الدكتور خانجي أن الشيخ الكركي هو الذي أفهم القزلباش والشاه طهماسب الشاب الصغير أن السلطة الحقيقة هي للإمام الغائب، وما الشاه إلا متلقي لتلك السلطة من الإمام الغائب، وهكذا جعل الشاه الشيخ الكركي منبعًا لمشروعية حكمه، ومن هنا ولأول مرة في التشيع ابتدع مقام المرجعية وتطورت فيما بعد؛ ولذا فإن فكرة ولاية الفقيه كان الشيخ الكركي أول مبتدعيها في جسم التشيع، وقد أشرت إلى ذلك في كتابي (جذور التشيع).

كما قام الكركي بتأسيس مدارس للمذهب، وأخذ أطفال السنة والأيتام لتدريسهم التشيع الصفوي.

و من هنا وجب على كل شيعي أن يقلد مرجعًا دينيًّا، وأن يتبعه ولا يخرج عليه، وهذا البلاء نزل في عقل التشيع الإيراني بالذات في هذه المدة، وألغي العقل وحل محله تصديق الخرافات والأكاذيب، التي امتلأت بها مؤلفات الشيعة الإيرانيين خاصة في تلك الحقبة، ولقد حلت الحسينيات محل الزوايا الصوفية القديمة، ومحل المساجد التي هدمها وتركها القزلباش، والتي لم يعد الإيراني يصلي بها خشية رميه بالتسنن. وقيل: إن الكركي أفتى

(١) أمير حسين خانجي، (ص ٣٤١).

بأن جميع المساجد التي بناها السنة لم تكن على القبلة الصحيحة؛ ولذا يجب هدمها وبناؤها من جديد[١].

انتقال علماء شيعة جبل عامل إلى إيران

يرى بعض علماء الشيعة أن التشيع في الشام قديمًا يرجع إلى زمن نفي أبي ذر الغفاري إلى الربذة على اعتبار أن أبا ذر من أصحاب الإمام علي رضي الله عنه، أو إلى زمن الصحابي سلمان الفارسي، ومروره بدمشق زائرًا الصحابي أبي الدرداء في بيروت، والحقيقة أن التشيع لم تتضح معالمه، إلا بعد مقتل الإمام الحسين رضي الله عنه[٢].

ويبدو أن التشيع الواضح الذي ترك بعض الأثر في المذهب الشيعي وهو الدليل القاطع كان إبَّان انتشار التشيع في العالم العربي زمن البويهيين حكام إيران والعراق. فقد امتد تأثير شيعة العراق في هذا الوقت إلى مدينة صور بلبنان، وكان ذلك في نهاية القرن الخامس الهجري. ثم القرن السادس والسابع بدأ تقاطر الشيعة إلى صور وطرابلس والكرك وجبل عامل، وأضحى علماء فيها يفد إليهم طلاب العلم من إيران والعراق وغيرهما، ولكن المنطقة هذه كانت تحت النفوذ الفاطمي الشيعي الإسماعيلي، وهو منافس للتشيّع الإمامي الاثني عشري، الذي كان يرعاه البويهيين في العراق وإيران، وبعض مناطق نفوذهم الأخرى. كما نشير إلى نفوذ الدولة الأيوبية، التي مركزها حلب في هذه المدة، وهي تتبنى التشيع الفاطمي الإسماعيلي والتشيع الاثني عشري معًا، ولكن شعبها أكثرهم من أهل السنة. ولكنها واقعة بين النفوذين.

من أوائل علماء جبل عامل في القرن السابع الهجري الشيخ نظير الدين العاملي، وكان له تلاميذ ومريدون، وهذا يدل على وجود بعض الشيعة في جبل عامل منذ ذلك الوقت، وقد رحل من علماء جبل عامل وجزيل وجباع وما حولها إلى العراق، طلبًا للعلم خاصة إلى النجف، بعد أن أسس فيها الطوسي علمه ومدرسته، فكان إسماعيل بن الحسين الجزيني العاملي (٥٨٠هـ) من أوائل من رحل إلى العراق طلبًا للعلم. وبعد أن انتقل إلى

(١) مصدر سابق، (ص ٣٤٩).

(٢) علي مروة: التشيع بين جبل عامل وإيران، (ص ٤٣-٤٧).

العراق نقل التشيع العاملي إلى الحلة بمساعدة من الزيديين، مثل كثير من طلبة العلم في جبل عامل، وما حولها يدرسون في الحلة عن مشايخها، منهم جمال الدين يوسف بن حاتم الشامي العاملي، وكان في الحلة يومها الشيخ فخر الدين المطهر العلامة (٧٧١هـ)، وممن رحل أيضًا الشهيد الأول محمد مكي، ومنذ سقوط بغداد على يد هولاكو إلى بداية القرن التاسع الهجري أصيب التشيع وغيره بانتكاسة، عاد بعدها إلى الانتعاش، خاصة في الحلة؛ ومن بين الرحلات العلمية من قبل طلبة جبل عامل، وما حولهم لم تكن فقط إلى العراق، بل كانت أيضًا إلى الهند خاصة حيدرأباد، وإلى مصر منهم الشهيد الثاني الشيخ صفي الدين العاملي زار مصر سنة ٩٤٢هـ، وأخذ عن بعض علمائها.

وعمومًا فإن التشيع قد تأصّل في جبل عامل، وانتشر فيما حول المنطقة خاصة كرك نوح، الذي ينسب لها الشيخ الكركي، وبسيطرة الصفويين على حكم إيران، ومن بداية حكم الشاه إسماعيل الصفوي بدأت رحلات شيوخ جبل عامل ولبنان تتوالى على إيران بتشجيع من الصفويين، حيث كان أتباعهم القزلباش من العناصر التركية لا يفقهون كثيرًا في المذهب الاثني عشري غير ما تعلموه في الغلو وسب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله، وكراهية سنة إيران وإجبارهم على التشيع بحد السيف، ومن أوائل من ذهب في جبل عامل إلى إيران الشيخ حسني عبدالصمد العاملي شيخه الشهيد الثاني زين العاملي، حيث لم يحتمل العثمانيون آراء بعض الشيعة المتطرفة أو المغالية، حيث قُتل بعضهم أمثال المدعو بالشهيد الأول، حيث قد عملت العلاقات المتوترة بين العثمانيين (الذين يحكمون الشام) والصفويين الذين يحكمون إيران عملها في هذه الفتن.

ولكن أهم من رحل من جبل عامل إلى إيران في عهد الشاه إسماعيل وبدعوة منه، هو الشيخ علي بن حسين بن عبدالعالي الكركي بعد إقامته بالعراق. وقد أغدق عليه الشاه المال الكثير، لإنفاقه في نشر المذهب، وتدريس طلبة العلم. وبعد وفاة الشاه إسماعيل بقي الكركي مكرمًا من ابنه الشاه طهماسب الأول، فعينه حاكمًا في الأمور الشرعية لجميع البلاد وكتب له بذلك فرمانًا، وقيل: إن الكركي كان وراء العمل في تغيير القبلة، التي كانت عليها مساجد إيران، حيث حرفت إلى اليسار على عدة أسس ودعاوى، منها ما قيل: إنها توافق الاتجاه للحجر الأسود، وقيل: إن ذلك جرى بعد تحقيق من علماء الهيئة، وقيل:

وهو الأول، ربما لمخالفة ما كان عليه سنة إيران، حيث عمد الصفويون وبمساعدة من علماء الشيعة أمثال الكركي وغيره، ممن قدموا من العراق والشام، وهم ضد أهل السنة والعثمانيين مخالفة أهل السنة في إيران لمحو آثارهم كما قدمنا... ونقل عن الشيخ نعمة الله الجزائري (وهو من علماء الشيعة الصفويين): أن الشاه طهماسب كان يعد الشيخ الكركي نائبًا للإمام الغائب، وأنه كان يقول له: أنت الحاكم الحقيقي ونحن أتباعك.

وبعد أن جاء علماء الشيعة من جبل عامل قام الصفويون بمزيد من التقتيل لعلماء السنة، حيث عمدوا إلى قتل الشيخ أحمد بن يحيى بن سعد التفتازاني سنة ٩١٦هـ من علماء السنة.

وقد قيل: إن الكركي كان حينها في معية الشاه طهماسب، وأنه تأسف على مقتل التفتازاني، وقال: إنه كان راغبًا في محاورته، وعمومًا فإن للكركي تأثيرًا كبيرًا لما تركه من تلاميذ أصبحوا مؤثرين في التشيع الصفوي، منهم عبدالنبي الجزائري الشيخ الشهير بابن خاثون، وأثر الكركي على التشيع نتج عنه تركيز التشيع في إيران، وصعود الشيعة إلى درجة المغالاة في المذهب وكراهية السنة.

ومن غلاة علماء الشيعة في العصر الصفوي:

* بهاء الدين العاملي الجبعي.
* عبدالنبي الجزائري.
* نعمة الله الجزائري.
* الميرزا حبيب الله الكركي العاملي (ت١٠٩٥).
* محمد بن الحسن الحر العاملي (ت١٠٣٣).
* الأغادين الخوانساري المحقق.
* محمد باقر المجلسي صاحب كتاب بحار الأنوار.

كان لعلماء جبل عامل الشيعة المهاجرين إلى إيران الصفوية خدمة كبيرة للصفويين وللمذهب، ولكنهم مع الأسف شارك أكثرهم في الغلو وسكتوا أو حرض بعضهم على إيذاء السنة وإجبارهم على التشيع في تلك الحقبة، وما ذكرنا من جملة العلماء إنما هم

النموذج، ولمن أراد التقصي والتفصيل مراجعة كتاب علي مروة عن تاريخ الشيعة في جبل عامل، وهجرتهم إلى إيران الصفوية.

وعمومًا فإن جبل عامل وما حوله من الشيعة الاثني عشرية الذين يسمون في لبنان بالمتاولة مروا خلال مدة النفوذ العثماني على هذه المنطقة بمشكلات وأحداث حربية طائفية، دفعتهم في بعض الأحيان للتحالف مع الجيش الفرنسي أيام نابليون بونابرت ومرة أخرى مع مسيحيي المنطقة، الذين هم الآخرون تحالفوا مع الفرنسيين.

وكان الجو العام في جبل عامل دافعًا لعلماء الشيعة للهجرة إلى الشام والعراق، وكان حكم الصفويين لإيران واستقراره فيما بعد ومعادات الجميع للدولة العثمانية سببًا لرحيل كثير من شيعة جبل عامل وعلمائها إلى شتى المدن الإيرانية واستيطانهم[١] فيها، وعموما فإن أهم الآثار الفكرية الناتجة عن أعمال الشيعة العرب في إيران إبَّان تلك الحقبة تتلخص فيما يأتي:

> كان مذهب الإخباريين من الشيعة الاثني عشرية قد انتشر بواسطة الشيخ أحمد الأحسائي وتلاميذه في العراق، خاصة وهم في منهجهم يوثقون جميع الأخبار الواردة في كتب الحديث، ولا يطعنون فيها، ومثلما وصل هذا التيار إلى إيران في خفية الصفويين كان انتصارًا في النهاية للأصوليين من علماء الشيعة والعلماء العرب كانوا في غالبيتهم يقودون هذا الاتجاه - منهم يعتمدون قواعد فقه الأصول في تحقيق النصوص إلى الذي يقبله عليهم تفكيرهم، فقد لا يوثقون أخبارًا وردت من كذابين، أو من لا يوثق بدينهم، أو لأي سبب آخر يقدح في شخصهم أو علمهم. وهذا الفريق كان قديمًا قد نشأ على يد الشيخ المفيد والطوسي والسيد المرتضى. أفاد هذا الاتجاه متأثرًا بما عليه أهل السنة من أصول مفيدة تطورت منذ عهد الشافعي، كما لا يخفى أثر المدرسة المعتزلية على هذا التوجه عند الشيعة عمومًا. كان

(١) علي الزين: فصول من تاريخ الشيعة في لبنان، عرض بدر الدين عباس، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، ١٤١٢هـ.

الأصوليون الشيعة هم أدوات تطور الفقه، ففي هذه المقولة تطور عندهم وجوب الاجتهاد وترك التقليد، (الذي لا يميل إليه الإخباريون). وسبب هذا التوجه ظهر فيما بعد بين العلماء الأصوليين الشيعة أن الذي يتصدى للاجتهاد يجب أن يكون من أعلم العلماء، وأن الجميع قد شهدوا له بذلك، وفي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ظهر هذا المفهوم، ونتج عنه أن المتصف بتلك الصفة يستحق أن يكون نائبًا عن الإمام الغائب، وأن اجتهاده ورأيه هو من رأي الإمام الغائب. وهذا العالم هو الذي يستحق أن يقلد، ومن هنا نشأ ما يسمى عند الشيعة بالمرجعية الدينية، وأصبح لكل قوم اتجاه ومرجع يعتمدون تقليده، ودفع الزكاة والخمس له أو لنائبه، ولم يكن مثل ذلك واضحًا فيما قبل[١].

وعن القول بالمرجعية وتقليدها أنتجت خاصة عند المُلا أحمد النراقي (ت١٢٤٥هـ) ما يسمى فيما بعد بوضوح ولاية الفقيه، حيث إن هذا المرجع يجب أن يكون وليًّا ونائبًا عن الإمام الغائب، وأعطوا تلك الولاية قدسية، بحيث تحل محل الإمام الغائب في الحكم، وهذا مفهوم سياسي يهدد السلطان لم يظهر من قبل[٢].

إن آل بويه قد كانوا زيدية، انقلبوا بعد ذلك عند احتلالهم بغداد إلى إمامية اثني عشرية؛ لأن إمام هؤلاء غائب يمكِّنهم من الحكم بخلاف الشيعة الزيدية، الذين أفهموا عضد الدولة عند دخوله: إن الحكم للداعي الزيدي وليس له[٣]، وقد تطورت هذه الفكرة إلى نظرية عند الخميني، ظهرت بشكل تطبيقي لا نظري في ظل حكومة الثورة الإسلامية في إيران[٤] [٥].

(١) البغدادي: تاريخ بغداد، (١٨١/٣)، وما بعدها، القرطبي: تفسير (٨٢/١)، الشهرستاني: الملل، (١٨٤/١).
(٢) النجاشي: رجال، (ص٣٣٨).
(٣) المفيد: الإرشاد، (ص٤١٣).
(٤) أحمد كاظمي موسوي: ظهور مرجعية التقليد في المذهب الشيعي الاثني عشري أو الاجتهاد، العدد الرابع ١٩٩٨م بيروت.
(٥) نعمة الله الجزائري: الأنوار النعمانية، (٢٥٦/٢).

obeikan.com

الفصل الثاني

الممالك والإمارات العربية والمعابد فيها

إن مملكة الغساسنة والمناذرة والحيرة وإمارات كل من ميسان والحضر والرها والبحرين كلها كانت حواضر عربية، امتزجت فيها عناصر من الفكر الفارسي واليهودي والنصراني قبل الإسلام والعرب، الذين كانوا يسكنونها أو أولئك القادمون من الجزيرة العربية إلى هذه الجهات، وإن كانت أكثر ديانتهم وثنية، إلا أن الكثير منهم قد تأثر بهذه الأقاليم، وما تمثله من اتجاهات سياسية للدولة الساسانية أو الدولة الرومانية[١].

ففي مملكة تدمر وفي عهد الملكة الزباء ذكر أنها سمحت للجاليات اليهودية بالإقامة في تدمر، ومن المحتمل أن يستتبع هذه الإقامة أن يقوم اليهود ببناء معابدهم، بل ذكر أن الزباء نفسها اعتنقت اليهودية، ولكن أصبحت تدمر مركزًا من مراكز النصرانية.

مملكة الغساسنة

نشأت مملكة الغساسنة برعاية من الدولة الرومانية، وكان من أهم الأغراض السياسية للدولة الرومانية هو أن يقوم الغساسنة بصد هجمات عرب الشمال عن الحدود البيزنطية، والوقوف ضد نفوذ الدولة الفارسية، خاصة تلك المتمثّلة بدولة المناذرة في الحيرة، إن أهمية هذه المملكة وما تمثله من امتزاج النفوذ الروماني النصراني ونفوذ القبائل العربية وخاصة قبيلة الأزد. ومن أوائل ملوك الغساسنة الذين اعتنقوا النصرانية الحارث بن جبلة، وكذا اعتنق بعده ابنه النعمان الديانة النصرانية، وأصبحت مدينة بصرى في عهده مدينة ذات نفوذ، ومركزًا للنصرانية، حيث بنيت فيها كاتدرائية سنة ٥١٢م، وكان لبني مازن من العرب بيعة نصرانية في الحيرة، وهم من الأزد من بني عمرو

(١) د. حامد عوض الله: ممالك بني إسماعيل، (ص٢٣)، وما بعدها بيروت ١٩٨٣م. سعد بن عبدالرحمن الجريد: القبائل العربية في بلاد الشام وعلاقتها بالدولة الإسلامية، رسالة ماجستير كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام، سنة ١٤٠٦هـ، (ص ٢٢٩- ٢٣٦).

ابن مازن من الغساسنة، وذكرت الروايات أن الفاتحين العرب للشام واجهوا في قتالهم عربًا من الغساسنة متحالفين مع الروم، وقد هربوا إلى بيزنطة بقيادة جبلة بن الأيهم الغساني، وقيل: إن جبلة بن الأيهم قد حرض هرقل ملك الروم على دس السم لعمر بن الخطاب، وفي فتح الشام كانت العرب المُتنصّرة من قبائل بهراء ولخم وقبائل بلي وجذام في صفوف الرومان، ولكنهم هزموا، كما شارك هؤلاء -خاصة قبيلة بلي- ضد المسلمين في غزوة مؤتة سنة ٦٢٩م، وكذلك في فتح المسلمين لأنطاكية وحين هرب هرقل، فتبعه كثير من متنصرة العرب من أياد وغسان وتنوخ، فتتبعهم القائد المسلم ميسرة بن العبس، ثم ساندہ القائد المسلم الآخر مالك الأشتر[١].

ومن هذه المعلومات يتضح للقارئ الكريم أن هذه المنطقة وما احتوته من قبائل عربية كانت بكل وضوح جسرًا عبرت منه عناصر أجنبية شتى خاصة من النصرانية واليونانية واليهودية، كما سنرى تفصيل في موضعه.

إمارة الحضر

وتقع في وادي الثرثار شمال العراق، وهي إمارة عربية قديمة، نشأت قبل الميلاد، ثم أصبحت منطقة صراع بين النفوذ الفارسي والنفوذ الروماني، وتشير آثارها إلى وجود معبد الشمس وعبادة اللات، وكان ذلك حتى بعد انتشار الديانة النصرانية في هذه المنطقة، فإن الغالبية قد تنصروا، وفيهم قبائل عربية معروفة في نصرانيتها قبل الإسلام[٢].

إمارة الرها

وهي مدينة قديمة، تقع قرب حران، نشأت في القرن الثاني قبل الميلاد، وكان أمراؤها من العرب- أخصهم اللخميون، ومن أشهر ملوك الرها ابن مالك، واللغة السائدة كانت السريانية، التي أصبحت لغة الديانة النصرانية، وتدور روايات عن ملكهم أنه أرسل رسالة إلى السيد المسيح، يدعوه فيها إلى الرها بعيدًا عن اضطهاد اليهود، وقيل: إن أحد تلاميذ

(١) محمد بيومي: تاريخ العرب القديم، (٤٠٢/٢)، وما بعدها. سعد الجريد: القبائل العربية في بلاد الشام وعلاقتها بالدولة الإسلامية، مصدر سابق، (٢٢٩- ٢٣٦).

(٢) محمد بيومى مهران: تاريخ العرب القديم، (٤٨٥/٢)، وما بعدها.

المسيح (مارادي) جاء إليه وعلى يده دخل الملك إلى النصرانية، وقد تعرضت هذه الإمارة إلى مضايقات وغزو من الرومان[١].

مملكة المناذرة في الحيرة

وكانت الحيرة قريبًا من الكوفة نشأت قبل الميلاد، فسكنها قبائل عربية، أخصها كان تنوخ من قضاعة، ومن أشهر ملوكهم النعمان بن امرئ القيس باني قصر الخورنق الباقية بعض آثاره، وفي عهد ملكهم المنذر بن النعمان كان جيش الحيرة يتكون من عرب وفرس، وقد قام هذا الملك بتربية بهران ابن ملك الفرس يزدجرد، فكانت هذه المملكة تحت النفوذ الفارسي، ومن أهم مقاصدها الدفاع عن الدولة الساسانية ضد الغزاة العرب على أطراف الدولة الفارسية، وفي حقبة ملك الحيرة المنذر شاع مذهب مزدك الفيلسوف الفارسي، وفي عهد الملك الفارسي قباذ سيطر على ملوك الحيرة ونصب ملوكًا من قبيلة كندة، وقد سخَّر الفرس كثيرًا من العرب لأغراضهم السياسية خاصة ما ذكر عن بعض قبيلة أسد وبعض من قبيلة غطفان حتى قيل: إن بعضًا من القبائل العربية كانت تقاتل مع الفرس عند فتح العراق.

كانت الديانة الأولى للحيرة ديانة وثنية كعبادة الشمس والمشتري، أو ما ذكر من عبادات طوطمية لحيوانات أو أوثان، ولكن بعد سيادة الرومان وانتشار النصرانية، حدث في الحيرة انقسام في النفوذ الديني بين الزرادشتية الفارسية والديانة النصرانية، وتذكر الروايات انتشار البيَع والأديرة في الحيرة، وأحصى بعض الباحثين ٣٦ ديرًا في الحيرة كان الشعراء يلتجئون إلى هذه الأديرة طلبًا للخلوة، وقد ذكر أن بعضًا من القبائل العربية قد تنصرت، منهم من تميم، وبعض من ربيعة، وبعض من أياد، وبعض من بكر، وبعض من تغلب، وبعض من النمر، وبعض من عبد قيس.

وتنقل المصادر العربية أن والي العراق الحجاج بن يوسف حينما ضاق ذرعًا بأهل الكوفة، قال: «إنها أصبحت ملجًا حقيرًا لليهود والنصارى»[٢].

(١) محمد بيومي: مصدر سابق، (ص٤٨٧)، وما بعدها.

(٢) عارف عبدالغني: تاريخ الحيرة، (ص ٤٧٨)، الجعيط: الكوفة، (ص ٢٥).

ومن هنا يتضح كيفية انتقال الأفكار المجوسية واليهودية والنصرانية إلى العرب واعتبار الحيرة أحد الجسور التي عبرت منها تلك العناصر من الحيرة إلى الكوفة، فقد ورثت الكوفة حضارة الحيرة، بل حتى أحجار بيوت الحيرة نقلت لبناء الكوفة[١].

(١) الطبري: تاريخ، (٦: ص)، الجعيط: الكوفة، (ص ٢٧٢).

obeikan.com

الفصل الثالث

الموالي والحركات الشعوبية

الموالي

نتج عن الفتح الإسلامي تقسيم الفيء بين المقاتلين من البلاد التي فتحت عنوة، ومن جملة الفيء السبي من رجال ونساء، فكان المقاتل العربي يكسب المئات من السبي، فيبيع من لا يحتاج له، ويستبقي في خدمته من هو في حاجته، فيصبح من مواليه، ويعطيه اسمه واسم قبيلته، ولما كثر الموالي في المجتمع العربي بدأت تظهر بالتدريج مظاهر التغير في الفكر في المجتمع العربي، خاصة نهاية الدولة الأموية، وعلى مر الزمن للدولة العباسية. وأول ظهور لقوة الموالي السياسية يلحظها الباحث في ثورة المختار بن عبيدالله الثقفي، الذي ثار في الكوفة مطالبًا بدم الحسين رضي الله عنه، ومدعيًا في البداية نيابته عن الإمام محمد بن علي ابن الحنفية، ثم ادعاءه بأفكار السبئية المعروفة آنذاك في الكوفة، واستخدم أحد مواليه المدعو كيسان، الذي فيما يبدو نسبت فرقة الكيسانية الغالية من الشيعة إليه. فلأول مرة اشترك الموالي في الثورة ضد الحكم العربي، فانخرطوا مع جيش المختار يدورون على بيوت من اشترك في مقتل الحسين، فيقتلونه بداره، فقويت شوكتهم، وأخرجوا كرسيًّا وادعوا أنه منبر للإمام علي في مسجد الكوفة، وأنهم يتبركون به انتصارًا ضد أعدائهم، وتشبُّهًا بتابوت بني إسرائيل، الذين كانوا يحملونه معهم في قتالهم.

إن غالبية هؤلاء الموالي كانوا من الفرس، وقد انضم إلى حركة المختار إبراهيم ابن الأشتر النخعي وكثير من القبائل اليمنية، واتسمت هذه الحركة بأفكار الشيعة، حيث نادت بإمامة محمد ابن الحنفية، ودارت حوله كثير من الأفكار الغالية، وقد فشلت هذه الحركة، وضربها جيش مصعب بن الزبير القادم من البصرة، بقيادة المهلب بن أبى صفرة (من قبيلة الأزد).

إن من أهم أسباب اشتراك الموالي في ثورة المختار هو شعورهم بأنهم مغلوبون على أمرهم ماديًّا وفكريًّا، وتذكر الروايات أن لعباد بن زيد وهو من الأشراف ما يقرب من

ألفين من الموالي قاتلوا مع المختار، كما ذكر أن لجرير بن عبدالله البجلي وهو شيخ قبيلة بجيلة مواليَ كثيرين في الأنبار، وقد اعتنق كثير من هؤلاء الموالي أفكار السبئية من الشيعة، وأدخلوا عليها زيادات وحججًا يقتضيها الصراع السياسي، فشاعت بينهم أفكار الغلاة المتعلقة بالإمامة والعصمة والرجعة، وما إليها من تلك الأفكار، وقد تطورت تحت تأثير ديانة الموالي المجوسية، فأضحى الموالي وبعض أسيادهم من العرب تحت تأثير هذه الأفكار، فكانوا حقيقةً الجسر الذي عبرت منه الأفكار الزرادشتية والمانوية والبابكية خاصة في العهد العباسي، وعلى يد الحركات الشعوبية التي رفعت بوضوح أفكارها الشعوبية في المجتمع العربي والإسلامي[1].

وارتفع شأن الموالي في الدولة العباسية إلى أن وصلوا إلى منصب الوزارة كالبرامكة والطاهر، وبلغ نفوذهم درجة أوغرت صدور الخلفاء فنكلوا بهم، ولقد أدوا دورًا بارزًا في العلوم والثقافة العربية والإسلامية، فكان منهم الفقهاء والعلماء والفلاسفة والشعراء، وامتزجوا في المجتمع، فأصبحوا بشكل عام متجانسين مع الآخرين، وهذا في الحقيقة شأن غالبيتهم، ولكن القلة منهم وممن لم يحسن إسلامهم ضمروا نوايا عدوانية، فانخرط بعضهم في الحركات والفرق المعادية، ومنها فرق الشيعة الكثيرة التي أوضحها لنا مؤرخ الشيعة النوبختي في كتابه المعروف (فرق الشيعة)، حيث أوضح مقالاتهم ورؤساءهم -ونحن في هذا البحث نلقي الضوء على هذه الفئة- التي تعد الجسر الذي انتقلت منه الديانة المجوسية خاصة ما له علاقة بمقالات الزرادشية المانوية أو البابكية.

الحركات الشعوبية

إن مصدر الموالي في المجتمع العربي والإسلامي بعد الفتح كان من مصدرين؛ الأرقاء الذين كانوا موضعًا للأسر في أثناء الحروب، والقسم الثاني غير العرب، الذين يدفعون الجزية، ويبقون على دينهم، ولهم حقوقهم الشرعية المعروفة، وغالبًا ما يتخذ الموالي لهم أسماء عربية أو أسماء أسيادهم، وقد دخل أكثر الموالي في الإسلام وحسن إسلامهم، وأدوا للعلوم والثقافة الإسلامية دورًا مشهودًا، لكن قلة من هؤلاء اتخذت حقد العرب لها

(١) الطبري: تاريخ، (/ ١٩٦- ٢٢٣)، هند أبو الشعر: حركة المختار، (ص٤٦٧)، النوبختي: فرق الشيعة، (ص٦٩)، الكشي: رجال، (ص١١٧).

منهجًا، وقد ظهر ذلك في بعض كتبهم وإشعارهم، وقد سميت هذه الظاهرة بالحركة الشعوبية، التي تضمر الكراهية للعرب المسلمين، وتنقد الأعراف العربية، وتشيع رغبتها في الرجوع إلى دياناتها وأفكارها القديمة، فقد رُمِيَ كثير من الشعراء والكتَّاب الموالي بالزندقة، وانضوى كثير منهم في الحركات السياسية ضد الدولة الإسلامية.

فكتابات ابن المقفع وشعر بشار بن برد وأبي نواس ومهيار الديلمي مليئة بالسخرية من العرب، ومظهرة لأفكار فرقهم آنذاك، ومن هؤلاء أيضًا أبو عثمان سعيد بن حميد الذي ألف كتابًا في فضائل الإيرانيين، وقد حبسه متهمًا بالزندقة المعتصم، ومنهم أيضًا أبوعبيدة معمر بن المثنى، فقد كان أبوه يهوديًّا، وكان يكذب ويدس في كتابه أفكارًا يهودية؛ والذي يطّلع على كتب الرجال عند الشيعة: كرجال الكشي ورجال الطوسي وغيرهم يدرك أن غالبية رواة الشيعة هم من الموالي، والذي يقرأ كتاب تفسير القرآن للقمي يدرك بوضوح تلك الروايات المرتبطة بالفكر اليهودي، ومن أراد المزيد فليراجع كتابنا (أثر الفكر اليهودي على غلاة الشيعة). وقد علا شأن الموالي الفرس في الدولة العباسية، وشغلوا منصب الوزارة، وأصبح منهم ولاة وقادة جيوش، وحينما غزا البويهيون بغداد سنة ٣٤٥هـ ارتفع شأن الموالي الشيعة في العراق وإيران، وكان الفرس البويهيون على الديانة المجوسية، ثم اعتنقوا المذهب الزيدي، وعند دخولهم بغداد انقلبوا إلى شيعة إمامية؛ لأن الزيديين ببغداد طالبوا بإقامة السلطان للداعي الزيدي، فكان من السهل تحولهم إلى الشيعة الاثني عشرية؛ لأن إمامهم كان غائبًا في سردابه، فانتعش التشيع الاثني عشري في إيران والعراق، ووصل أثره إلى الحمدانيين في الشام، أما في مصر فكانت الدولة الفاطمية على مذهب الشيعة الإسماعيلية، كل ذلك نتيجة سياسية لتخلف العنصر العربي المسلم وضعفه، وسيادة العناصر الفارسية متسربلة ومتخفية وراء التشيع.

ففي العهد البويهي شاعت الأفكار المجوسية، ولم يتدخل البويهيون لمنعها، فقد ذكر أن رجلًا ادعى أن روح الإمام علي قد حلت به، كما ادعت إحدى النساء أن روح فاطمة عليها السلام قد حلت بها، وآخر ادعى أن روح الملك جبرائيل قد حلت به، فقد أطلق معز

الدولة ببغداد سراح هؤلاء المدعين بدعوى أنهم من الشيعة آل البيت، وأدخل البويهيون لأول مرة مواكب عزاء الحسين بمناسبة عاشوراء[١].

روايات عند الشيعة تؤكد اتجاهها إلى الشعوبية

نقل المجلسي من كتاب الاختصاص للشيخ المفيد عن الإمام الصادق ما مفاده أن المؤمن (الشيعي) هاشمي؛ لأنه هشّم الضلال، وهو قرشي؛ لأنه أقر بالشيء، ونحن الشيء، وهو نبطي؛ لأنه استنبط الأشياء، وهو عربي؛ لأنه عرب عنا أهل البيت[٢]، وهو أعجمي؛ لأنه أعجم من الدلام، وهو فارسي؛ لأنه تفرّس في الأسماء، ولو كان الإيمان منوطًا بالثريا لتناوله أبناء فارس، وفي رواية عن أبي يحيى الواسطي توضيح لنقاش دار بين أحد الشيعة والإمام الصادق، مشتكيًا من التسمية بالموالي، فرد عليه الإمام بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال: «أنا مولى لمن لا مولى له»[٣]، ونقل المجلسي رواية عن الصادق أن الله (يعذب العرب بالمعصية)، ونقل المجلسي أيضًا أن الصادق قال تفسيرًا للآية القرآنية ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ محمد: ٣٨، يقصد بغيركم أيها العرب (وقد استبدل بهم خيرًا منهم وهم الموالي) ونسب المجلسي رواية عن الصادق، يوضح فيها فضيلة العجم على العرب: «لو أن القرآن نزل بلغة العجم لم يصدقه العرب، ولكن العجم صدقوا القرآن العربي».

ونقل رواية عن الصادق[٤] «نحن العرب وشيعتنا الموالي، وسائر الناس همج»، ونسب الشيخ المفيد رواية عن الإمام علي أنه قال: «من أحبنا فهو الرضي، ومن أبغضنا فهو العلج، أما إنه لا يخرج منهم أحد مع القائم (المهدي)» يقصد أنه لا يخرج أحد من العرب

(١) البغدادي: تاريخ بغداد، (٧٢/١)، المسعودي: مروج الذهب، (١٠٢/٩)، ابن مسكويه: تجارب الأمم، (٢٠٧/٢)، فلهوزن: أحزاب المعارضة.

(٢) المجلسي: البحار، (١١٥/١٥). المجلسي: بحار الأنوار (١٥/ ١٧-١٨).

(٣) كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الله ورسوله مولى من لا مولى له، والخال وارث من لا وارث له». قال الترمذي وهذا حديث حسن صحيح. وأخرجه أحمد وابن ماجه.

(٤) وانظر أيضا القسم الأول (ص ٤٥- ٤٨)، والقسم الثالث (ص١٤١)، وانظر: (٢١٠/١٦)، و(١٣/ ١٨٦ -٢١٥)، من البحار.

عند خروج المهدي. ونقل أيضًا أن الإمام عليه صحيفة اسمها العبيطة «وأن فيها قبيلة من بهرجة ما لها في دين الله من سبيل».

إن هذه الروايات التي أوردها المجلسي في كتابه (بحار الأنوار) لا تحتاج إلى كثير من التعليق والدلالة على شيوع أفكار الشعوبية ضد المسلمين العرب، وقد اقتصرنا على ذلك، فهنالك كثير من الروايات المبثوثة في كتب الحديث عند الشيعة، تحذر من العرب وتذكر مثالبهم، مما يدل بوضوح أن التشيع غالبيته تطور فيما بعد بأيادٍ غير عربية، بعد أن كان في ظهوره مجرد منحى سياسي لبعض العرب.

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الرابع

الحركات الفارسية المارقة

١. الراوندية

وهي نسبة إلى ابن الراوندي، وأصل عقيدتها منتحلة من الديانة المزدكية الفارسية، وقيل: إن أبا مسلم الخراساني هو الذي عين ابن الراوندي للدعاية إلى أحقية الخلافة لآل البيت، وادعت الراوندية صفة الألوهية للخليفة المنصور، ويتضح من تاريخ الراوندية تحالف الشيعة الغلاة مع الحركة العباسية في أول نشأتها بفارس، و ادعت الراوندية أيضًا بفكرة الحلول الإلهي وفكرة التناسخ، وقد ادعى بعض الراوندية أن روح المسيح قد حلت بالإمام علي، ثم انتقلت إلى الأئمة ونادوا بحلية النساء كما في المزدكية، وقد قضى عليهم المنصور بمساعدة معن بن زائدة[١].

٢. البابكية

وهي المنسوبة إلى بابك الخرمي، وكان من موالي الشبل بن المنفي الأزدي في أذربيجان، وانضوى تحت نفوذ جاويدان، وتزوج امرأته واستولى على ماله، فورث نفوذًا بين أتباعه الذين اتسع نفوذهم في السلب والنهب وقطع الطريق، فثار ضد المأمون والمعتصم، وقد شهد المؤرخ الشيعي النوبختي في كتابه فرق الشيعة بأنهم من الشيعة الغلاة الخارجين عن الإسلام، لما ادعوه من عقائد فاسدة. وأهم عقائد البابكية الخرمية هي فكرة الحلول الإلهي، وأن النبوة لا تنقطع، ويَرَوْن أن بابك نبي يوحى إليه، ولا يؤمنون بجنةٍ ولا نار ولا بيوم حساب، كما يستحلون المحرمات من النساء المحارم والغلمان، ونادوا بدين اللذة متأثرين بالديانة الفارسية القديمة[٢].

---

(١) الطبري: تاريخ، (٨٣/٧)، (٤٨٠/٧- ٤٩٠).

(٢) المسعودي: تاريخ، (٢٢٠/٣)، (٣٠٦/٣).

٣. حركة سنباذ

وأغلب من انضم إلى هذه الحركة هم من الخرمية وبقاياهم، قيل: إنهم يعتقدون بعدم وجود جنة ولا نار، وأمر سنباذ أصحابه بالتوجه في الصلاة إلى الشمس أو النار، والتوجه إلى هدم الكعبة[١].

٤. حركة المازيار

وقد أسلم المازيار على يد المأمون، وولاه طبرستان، وأعلن المازيار حركته ضد المعتصم، ونادى بآراء المزدكية، فقضى عليه المعتصم[٢].

٥. حركة إسحاق الترك

وهو من أتباع أبي مسلم الخراساني، وادعى بعد مقتل أبي مسلم أنه سيرجع، وينادي بشريعة زرادشت، وتذكر المصادر التاريخية أن أفكار هذه الجماعة زرادشتية، قد استمر أثرها في مدينة بلخ وما حولها حتى القرن الرابع الهجري.

٦. طائفة المغيرية

وهم أتباع المغيرة بن سعيد العجلي (١٢٠هـ).

٧. طائفة البيانية

وهم أتباع بيان بن سمعان التميمي النهدي (١١٩هـ)، حيث زعم أيضًا بصفة الألوهية لعلي بن أبى طالب.

٨. فرقة الجناحية

وهم أتباع عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر، وهم القائلون بأن روح الله قد حلت بآدم، ثم في الأنبياء بعده، حتى انتهت إلى علي بن أبي طالب وأولاده، ثم إلى عبدالله بن معاوية.

---

(١) الطبري: تاريخ، (٩٨/٩).

(٢) ا. د. محمد عبدالعزيز بن أحمد العلي: عقيدة الحلول والتناسخ: عرضًا ونقدًا، (١١٤- ٢٩٦)، دار الصميعي للنشر، ط١، الرياض سنة ١٤٣٠هـ.

٩. فرقة النصيرية

وهم أتباع النصير النميري القائلين: إن روح الله قد حلت بمحمد وفاطمة وعلي والحسن والحسين، ثم حلت بالنميري نفسه.

١٠. فرقة الحلمانية

وهم أتباع أبي حلمان الدمشقي الفارسي، الذي نشأ في الشام، ونشر القول بفكرة الحلول.

١١. فرقة الرزامية

وهم أتباع رزام بن رزم من أهل خرسان، ونسبت أيضًا فكرة الحلول إلى فرق إسلامية كثيرة ضالة، مثل الشعيرية أتباع محمد بن موسى الشعيري. والعذاقرة أتباع أبي جعفر علي الشلغماني (٣٢٢هـ). وكذلك فرقة الخطابية أتباع أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع مولى بني أسد (١٤٣هـ)، حيث زعموا بألوهية علي بن أبي طالب وجعفر الصادق. ومنهم فرقة المفوضية: القائلون: إن الله قد فوض تدبير الكون إلى الأئمة (أئمة الشيعة). ومنهم الإسحاقية وهم أتباع زيد بن الحارث (٢٧٢هـ).

ومؤرخو الفرق أدخلوا بعض القائلين في الحلول في حديثهم عن الفرق الإسلامية الضالة، كفرقة الدروز وفرقة الإسماعيلية الفاطمية.

وخلاصة الكلام: إن أكثر القائلين بفكرة الحلول هؤلاء هم من الشيعة الغلاة، وبعض فرق الصوفية، الذين سنفصل الحديث عنهم في محله، ونسب القول بالحلول أيضًا إلى فرقة الجهمية، وهم أتباع الجهم بن صفوان (١٢٨هـ)، وينسب القول بالحلول لبعض الجهمية، ومن القائلين بفكرة الحلول بعض الطوائف المنسلخة عن الشيعة الاثني عشرية: كالبابية والقاديانية[١].

١٢. حركة فريد

ثار بنيسابور سنة ١٢٩هـ، ونادى بأفكار زرادشت وإنه خليفته مرسل من السماء، وفرض على أصحابه التوجه إلى الشمس بسبع صلوات، وتأثر بأفكاره أشنان الذي نشرها

(١) ابن النديم: الفهرست، (ص٣٤٤).

في مدينة بادغيش، والتي استمرت آثارها حتى القرن الرابع الهجري، كما يشير إلى ذلك ابن النديم في كتابه الفهرست[١].

١٣. حركة المقنع

ظهرت هذه الحركة في خراسان ضد الخليفة المهدي، وقد نادى وادعى بفكرة التناسخ والحلول، كما في الزرادشتية، وادعى أيضًا أنه سيرجع بعد موته، وأسقط عن أتباعه فرائض الإسلام، وأباح دماء المسلمين، واستحل النساء وشرب الخمر، وقد طال أثر هذه الحركة حتى قضى عليها الخليفة المهدي.

إن هذه الحركات التي نشأت منذ أوائل الدولة العباسية، واتسمت بالعنف والثورة ضد العرب والإسلام، وذلك بما حملته ونادت به من أفكار وعناصر مجوسية على اختلاف أنواعها من زرادشتية وبابكية ومانوية، واستمر أثرها حتى القرن الرابع الهجري، كما شهد بذلك ابن النديم في القرن الرابع، حينما استولى البويهيون على الحكم بفارس وبغداد.

لقد كانت هذه الأفكار ممهدةً بسيادة مذهب الشيعة، الذي فرضه البويهيون، ومن هنا ندرك أهمية هذا الجسر الذي عبرت منه عناصر الديانة الفارسية القديمة إلى التشيع، وخاصةً المغالي، والسبب الذي دعانا إلى الإشارة لهذه الحركات، التي قام بها غير العرب من العجم الموالي، وإشارتنا لبعض أفكارها هو امتداد آثارها إلى روايات الحديث عند الشيعة الاثني عشرية، بالرغم من أنهم يتبرؤون منها، والتي يجدها القارئ مبثوثة في ثنايا كتاب الكافي للكليني، أو في كتاب بحار الأنوار للمجلسي، وغيرها من كتب الحديث، ولم يستطع علماء الشيعة الاثني عشرية من تنقية هذه الكتب من تلك الأفكار، التي أصبحت وبالًا على المذهب.

ولهذا أوردنا تلك الحركات بوصفها جسرًا عبرت منه كثير من العناصر الفارسية والهندية القديمة إلى التشيع مع أن الشيعة الاثني عشرية، يتبرؤون من هذه الحركات ومن أفكارها.

---

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق، (ص ٢٤٤)، ابن الأثير: الكامل، (٣٨/٦).

القرامطة

نشأتهم

وينسبون إلى حمدان قرمط، وهو من أهل الكوفة، كان صوفيًّا في نشأته، ثم تأثر بمذهب المباركية الباطنية، كما يقول الغزالي، ثم التقى بحسين الأهوازي وكيل عبدالله بن ميمون القداح المشهور الداعية الإسماعيلي الباطني، وأصبح للقرمطي أعوان من أصحابه، وافقوه على الاعتقاد بالأفكار الباطنية، ووقع تحت تأثير ابن ميمون القداح، فبث القرمطي دعوة القداح في كلواذي، كما يقول الغزالي سنة ٢٦١هـ، وبعد موت القداح أصبح القرمطي رئيسًا لهذه الفرقة الغالية، وقد انضوى تحتها كلٌّ من حمدان مهروية وجلندي الرازي وعكرمة البابلي وإسحاق السوداني وعطية الديني، وهؤلاء جميعًا موالٍ من أصول فارسية، تشربت بهم العقائد والأفكار من الديانات المجوسية، وكانت دعوتهم الأولى لإمامة محمد ابن إسماعيل بن جعفر.

وذكر ابن النديم أن عبدان أحد رجال القرمطي هو الذي تولى الكتابة وتوضيح أفكار الدعوة القرمطية، وقد راسل القرمطي صاحب الزنج في البصرة، ولكن لفشل ثورة الزنج انقطع الاتصال فيما بينهما، ويذكر النوبختي في كتابه فرق الشيعة: أن أفكار القرمطي استجاب لها بعض العرب في الكوفة، ولكن في الواقع بعد انتشار دعوة القرامطة بالسيف، واشتداد الوهن إبَّان القرن الرابع الهجري التقت جهودهم الشيعية الباطنية بتسامح الحكم البويهي الشيعي معهم.

تفرقت القرامطة إلى ثلاث قوى من ناحية الرقعة الجغرافية، فحمدان قرمط في أرض السواد. والجنابي في البحرين وفارس. وأبو حاتم البوازي في القطيف والبصرة، وأضحت الحركة القرمطية عبارة عن عصابات كبيرة للسلب والنهب، ففي سنة ٣١٧هـ هاجم القرامطة بقيادة أبي سعيد الجنابي مكة، وقتلوا من وقف أمامهم، فنهبوا كسوة الكعبة، وطالبوا بإقفال الحج والعمرة؛ لأن ذلك في رأيهم مجرد عبادة للأحجار، وأخذوا الحجر الأسود إلى الأحساء، ولم يرجع الحجر الأسود إلا بعد أكثر من عشرين سنة وبواسطة فيما يبدو من الدولة الفاطمية. وذكر أن القرامطة يتدرجون بدعوتهم على مراتب، بحيث لا يفاجئون المدعو بالمرحلة الأخيرة من أفكارهم، فيبدؤون أولًا بإثارة الشك

والتأويلات المختلفة، ثم إنه لا بد من إمام جلي يهتدى إليه بشكل قاطع للإجابة على تلك التأويلات، والثالثة يصرحون بأن الأئمة في الأصل سبعة: أولهم محمد بن إسماعيل بن جعفر، والرابعة أن كل نبي ينسخ شريعة ما قبله، وأن الإمام محمد بن إسماعيل قد نسخ شريعة من قبله (محمد عليه الصلاة والسلام)، والخامسة أن الإمام له اثنا عشر نقيبًا على عدد شهور السنة يجب إطاعتهم، والسادسة يؤولون له مختلف الشرائع والأديان، حيث يسهل خروجه عما يدين به، والسابعة يوضحون له بأن الصانع في الكون اثنان قريبًا من الديانة الإثنينية (النور والظلام) (أوهرا ومزدا) في الديانة الفارسية، والمرحلة الثامنة أن أحد الصناع (الآلهة) لا بد أن يكون أسبق في الوجود، بحيث يقضي على الآخر (وهذا هو الفكر المجوسي نفسه)، والتاسعة تكون بسلخ الرجل من جميع معتقداته ودينه، فيكون أقرب إلى الديانة المانوية، التي تستحل المحرمات، ولا تعترف بالشرائع والديانات[١].

أفكار القرامطة

١ـ النبوة

مع اعتقاد القرامطة بولاية الإمام علي بن أبي طالب إلا أنهم يَرَوْن أن شريعة الإسلام قد نسخت، وأن نبيهم محمد بن إسماعيل بن جعفر هو المهدي المنتظر، وأنه لم يمت، وأن الأنبياء بعده يقومون مقامه، وهم علي بن فضل، وأبي سعيد الجنابي.

٢ـ الحلول

يدعي القرامطة أن الإله قد حل برجالهم، وخاصة من يزعمون أنهم أنبياء: كابن الفضل والجنابي، ويهدفون بذلك إلى وجوب طاعتهم.

٣ـ التأويل

يأخذ التأويل الباطني مساحة كبيرة في أفكار القرامطة؛ وذلك لأنهم يحتاجون إليه في تشكيك من يدعونه إلى مذهبهم، فكلما كثر التأويل للنص كثر معه الخروج عن النص

(١) محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي اليماني: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٦م، (ص ١٥- ٣٥)، وما بعدها.

والعمل به، وهي الغاية التي يبتغيها هذا المذهب، فزعموا مثلًا أن معنى الصلاة هي موالاة إمامهم، والحج زيارته، والصوم هو الإمساك عن إفشاء أسرارهم.

٤ـ شيوعية المال والنساء

اعتقد القرامطة شيوعية المال والنساء، فلا ملكية لأحد يدَّعيها، واستحلوا المحرمات على مقولة: إن الناس يتقاتلون على المال والنساء والأراضي، فإذا أشيع المال والنساء والأراضي، فقد منعنا الاقتتال بينهم، وهذا هو عين ما ذهبت إليه المزدكية والمانوية من ديانات الفرس، وقد كتبنا عن القرامطة لنوضح آراءهم التي شاعت بين المسلمين خاصة في العراق وإيران، ودلالة ذلك شيوع الأفكار المجوسية في هذه المنطقة خاصة في القرنين الثالث والرابع الهجري، فجعلتها في متناول كثير من الأدعياء والفرق، التي انتشرت في المنطقة، وخاصة ما يتعلق منها بمذهب الشيعة، الذي ورث كثيرًا من هذه الأفكار.

ومما يؤسف له أن بعضًا من الأبحاث أظهرت القرامطة بمظهر الحركة الثورية المجددة بالفكر العربي، في مقاربةٍ بينها وبين الأفكار الشيوعية والعلمانية. في حين أنها حركة هدامة للفكر العربي الإسلامي[١].

ومن هنا يتضح أن بعض أفكار القرامطة خاصة ما يتعلق منها بالتأويل الباطني، وصفات الأئمة، وفكرة الحلول الإلهي، كانت جسرًا عبرت منه تلك العناصر الأجنبية على الفكر الشيعي، وكان لها تأثير تاريخي وميراث، يظهر ويخبو على الشيعة في تلك المنطقة، بالرغم من أن علماء الشيعة يتبرؤون من القرامطة ومن أفكارهم.

(١) من هذه الأبحاث ما كتبه الدكتور عبدالجبار ناجي في مجلة الآداب، الصادرة من جامعة البصرة.

obeikan.com

الفصل الخامس

رواة من السنة تأثروا بالتشيع

إن كتب رجال الحديث السنة تذكر أن لبعض الرواة أفكارًا شيعية، وما ذلك إلا أثر من آثار انتقال التشيع إلى هؤلاء الرواة من السنة، التي نعدها أحد الجسور التي عبرت منها العناصر الأجنبية إلى الشيعة، وإن كانوا قلة من رجال الحديث السنة، ونحن هنا نضرب أمثلة على ذلك:

١. رواة ورد عنهم شتم الخليفة عثمان والشيخين، منهم

١. تليد بن سليمان المحاربي الكوفي (ت ١٩٠هـ): أورد الخطيب البغدادي: أن يحيى بن معين يرد حديث تليد هذا؛ لأنه كذاب، ويشتم عثمان. ونقل عن أحمد ابن حَنْبَل: أن تليد فيه تشيع. وقد ضعفه النسائي والدارقطني، وهذا الراوي توثقه مصادر الشيعة، ومنها كتاب الرجال للطوسي[١].

٢. يونس بن خباب الأسدي الكوفي: قال عنه يحيى وسعيد القطان: إنه كان كذابًا. وقال عنه يحيى بن معين:إنه كان يشتم عثمان. وروى كثيرًا من المنكرات[٢].

٣. أبو إسرائيل إسماعيل بن خليفة العبسي (ت ١٦٩هـ): قال عنه الجوزجاني: إنه مفترٍ وزائغ. وقال عنه ابن مهدي: إنه كان يشتم عثمان. وذكر ابن حبان أنه رافضي شتامٌ تالف[٣].

٤. أبو حمزة الثمالي، واسمه ثابت بن أبي صفية (ت١٥٠هـ): قيل: إنه من الموالي. أله ابن أبي صفرة، (وهو من قبيلة الأزد، وكان واليًا، وقائدًا لجيش الأمويين في

---

(١) العسقلاني: تهذيب التهذيب، (١/ ٢١٢- ٥٠٩).

(٢) الكشي: رجال، (ص٢٠٦).

(٣) الطوسي: رجال، (ص).؟؟؟؟؟؟

خرسان)، وقال عنه أهل الحديث: إنه ليس بثقة. وقال عنه ابن حبان: إنه غالٍ في تشيعه. وقيل: إنه يقع في عثمان. وأكثر كتب الشيعة توثقه، لكن الكشي ذمه[١].

٥. أبو المقداد العجلي، واسمه عمرو بن ثابت بن هرمز البكري (ت١٧٢هجرية): وقال عنه أبو زرعة: إنه واهي الحديث، وإنه شديد التشيع. وقال أحمد بن حنبل: إنه يشتم عثمان. ومن المناكير التي رواها قوله: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مات ارتد الناس إلا أربعة. وكان يسب الصحابة[٢]، وتوثقه أكثرية كتب الشيعة، ما عدا ابن الغضائري.

٢. ثانيًا: رواة ورد عنهم القول بفكرة الرجعة

ويقصد بها الشيعة رجوع بعض الأموات إلى الدنيا، ليقتص منهم الإمام علي قبل يوم القيامة، منهم:

١. الأصبغ بن نباتة الكوفي: الذي كان على شرطة الخميس زمن خلافة علي[٣].

٢. رشيد الهجري الرياشي (ت ١٢٨هـ): وهو من أصحاب الإمام علي، وقد ادعى برجعة الإمام علي[٤]، وقال عنه ابن حبان: إنه يؤمن بالرجعة، وأن عليًا هو دابة الأرض، المذكورة في القرآن، وورد أنه كان يعتقد بحياة الإمام علي بعد موته، وأنه قد زاره، وسلم عليه، وسمع تنفسه.

٣. داود بن يزيد بن عبدالرحمن الأزدي الزعافري الكوفي الأعرج (ت ١٥١هـ): وقال عنه ابن حبان: إنه يؤمن بالرجعة.

٤. المغيرة بن سعيد العجلي الكوفي (ت ١٢٠هـ): وتذكر المصادر أنه لم يكن عربيًّا، وإنما كان مولى لخالد القسري، وقال عنه ابن حبان: إنه زوَّر على الإمام علي وعلى آل البيت أحاديث منكرة. وتذكر المصادر أنه على علم بالديانات القديمة

(١) د. سعد الهاشمي: الرواة الذين تأثروا بابن سبأ، (ص ٢١٢)، وما بعدها، ط ١٩٩٢م.
(٢) د. سعد الهاشمي: مصدر سابق، (ص٤٠- ٤٢)، وما بعدها.
(٣) مصدر سابق، (ص٤٨)، ميزان الاعتدال، (٥٢/٢).
(٤) سعد الهاشمي: مصدر سابق، (ص ١٠٢)، عن تهذيب التهذيب (٢/ ٤٨).

خاصة المانوية والمندائية الصابئة، وذكر العقيلي أنه كان يؤمن بالرجعة، ونسبت له بعض الروايات: أنه يعتقد بألوهية الإمام علي وتكفير الصحابة.

٥. جعفر بن يزيد الجعفي الكوفي[١]: فأغلب كتب الشيعة توثقه، وذكر يحيى بن معين أنه كان كذابًا. وقال عنه العجلي: إنه كان غاليًا في التشيع، وكان يدلس ويؤمن بالرجعة. ومنهم أيضًا الحارث بن حصيرة الأزدي الكوفي (ت ١٤٦هـ)، وقال عنه محمد بن عبدالسلام الأسدي: إنه يؤمن بالرجعة. وقال عنه الدارقطني: إنه كان غاليًا في التشيع[٢]. أما عن مصادر الشيعة، فأغلبها توثقه، وأنه يؤمن بالرجعة.

٦. عثمان بن عُمير البجلي الثقفي الكوفي الأعمى (ت ١٥٠هـ): قال عنه الحاكم: إنه زائغ. وقال عنه عدي بن عدي: إنه كان غاليًا في التشيع، ويؤمن بالرجعة[٣].

٧. عمرو بن جابر الحضرمي: قال عنه أحمد بن حَنْبَل: إنه كان يكذب. وقال عنه الجوزجاني: إنه غير ثقة. وقال الأزدي: إنه كان كذابًا.

٨. زياد بن المنذر النهدي، ولقبه أبي جارود (ت ١٥٠هـ): قال عنه ابن حبان: إنه كان يضع الحديث في مثالب وعيوب الصحابة. ونسب له النوبختي أنه يؤمن بتناسخ الأرواح[٤].

٩. محمد بن القاسم بن زكريا المحاربي (ت ٣٢٦هـ): قال عنه الحافظ أبو الحسن بن حمّاد الكوفي: (كان يؤمن بالرجعة).

إن جميع هؤلاء الرواة كان لهم شيوخ رووا عنهم، وكذلك كان لهم أتباع وتلاميذ، نقلوا روايتهم، وكل ذلك مفصل في كتب رجال الحديث عند السنة، وتركنا الإسهاب في تفصيل ما ذكره المحدثون عنهم، واقتصرنا على الغاية من بحثنا في كون هؤلاء جسرًا، عبرت منه تعاليم الديانات القديمة إلى الشيعة، ولم تسلم كتب حديث السنة من رواياتهم[٥].

---

(١) الطوسي: اختيار معرفة الرجال، (ص١٢)، المجلسي: رجال، (ص ٩٣).
(٢) سعد الهاشمي: مصدر سابق، (١٥٤- ١٥٨).
(٣) مسند أحمد (٢/ ٣١٢).
(٤) الاثنا عشر رجلًا: ابن حصيرة (ص ٣٢٥- ٣٣٩).
(٥) ابن حصيرة: الاثنا عشر رجلاً، (ص ٣٢٥- ٣٣٩).

٣. ثالثًا: الرواة في كتب السنة المغالون في التشيع

١. حية العرني: هو أبو قدامة: حية بن جوين بن علي بن عبد نهم (ت ٧٦هـ)؛ قال عنه البخاري: إنه سيئ المذهب. وقال عنه مؤرخ الرجال: إنه من أصحاب الإمام علي، وشهد معه جميع حروبه.

٢. إسماعيل السدي: هو أبو محمد إسماعيل بن عبدالرحمن بن كريمة السدي (ت ١٢٧هـ) وصفه المؤرخون بأنه شتام، يشتم أبا بكر وعمر بن الخطاب.

٣. سالم بن أبي حفصة: هو أبو يونس سالم بن حفصة البجلي من أهل الكوفة (ت ١٤٠هـ)، وأجمع المؤرخون أنه كان ينتقد أبا بكر وعمر بن الخطاب.

٤. الحارث بن حصيرة: هو أبو النعمان بن حَصِيرة الأزدي من أهل الكوفة (توفي بين ١٤١-١٥٠هـ) قال عنه المؤرخون: كان يؤمن بالرجعة.

٥. عمرو بن شمر: هو أبو عبدالله عمرو بن شمر الجعفي، من أهل الكوفة (ت١٥٧هـ) اتفق المؤرخون على أنه كان يشتم الصحابة.

٦. عمرو بن حمّاد القناد: هو أبو محمد عمرو حمّاد بن طلحة القناد، وهو من أهل الكوفة (ت٢٢٢هـ) أجمع العلماء وقالوا عنه: إنه رمي بالرفض، وله مقالة سيئة بالخليفة عثمان رضي الله عنه.

٧. عبدالرحمن بن صالح: هو أبو صالح عبدالرحمن بن صالح الأزدي العتكي من أهل الكوفة (ت٢٣٥هـ) ذكر العلماء تشيعه، وقالوا عنه: إنه رجل سوء[1].

٨. إسماعيل الفزاري: هو أبو محمد إسماعيل بن موسى الفزاري من أهل الكوفة (ت ٢٤٥هـ)، وذكر العلماء أنه كان يشتم السلف.

٤. رابعًا: أخباريون في كتب السنة مغالون بالتشيع

١. سليم بن قيس: هو أبو صادق بن قيس الهلالي (ت ٨٥هـ)، وذكر العلماء أنه أورد في كتابه سب الصحابة والطعن فيهم.

---

(١) المجلسي: البحار، (٣٥١/٢٥)، المامقاني: المقال، (٤٣١/١).

٢. الأصبغ بن نباتة: هو أبو القاسم الأصبغ بن نباتة التميمي الحنظلي المجاشعي من أهل الكوفة (ت ١٠١- ١١٠هـ) قال العلماء وأجمعوا عليه أنه كان يقول بالرجعة لعلي رضي الله عنه، وعاصر مقتل الحسين[١].

٣. جابر الجعفي: هو أبو جابر عبدالله بن يزيد بن الحارث بن يغوث من أهل الكوفة (ت ١٢٨هـ)، فقد قال العلماء: إنه كان كذابًا، ويشتم الصحابة، وأجمعوا عليه بأنه يؤمن بالرجعة.

٤. محمد بن السائب الكلبي: هو أبو النضر محمد بن السائب بن بشر الكلبي من أهل الكوفة (ت ١٤٦هـ)، اجتمع العلماء بأقوالهم عليه بأنه كان كذابًا وساقطًا، وأنه سبئي من أصحاب عبدالله بن سبأ، واتُهم بالكذب والرفض.

٥. أبو مخنف: هو لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف الأزدي من أهل الكوفة (ت ١٥٧هـ) أجمع العلماء عليه بأنه كذاب.

٦. أبان بن عثمان: هو أبو عبدالله أبان بن عثمان بن يحيى بن زكريا اللؤلؤي من أهل الكوفة (ت ٢٠٠هـ) قال عنه العلماء: إنه كان كثير الفاحشة والكذب.

٧. هشام بن محمد الكلبي: هو أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي من أهل الكوفة (ت ٢٠٤هـ) أكد العلماء أنه ليس بثقة.

٨. محمد بن أبي عُمير: هو أبو أحمد محمد بن أبي عُمير زياد بن عيسى الأزدي من أهل الكوفة (ت ٢١٧هـ) قال عنه العلماء: إنه كان وجهًا من وجوه الرافضة.

٩. النوفلي: هو أبو الحسن علي محمد بن سليمان بن عبدالله بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب من أهل الكوفة (ت ٢٠٤هـ)، قال عنه العلماء: إنه كان يشتم الصحابة.

١٠. نصير بن مزاحم: هو أبو الفضل بن مزاحم المنقري من أهل الكوفة (ت ٢١٢هـ) قال عنه العلماء: إنه كان زائغًا عن الحق.

---

(١) يمكنك الرجوع إلى الاثني عشر رجلاً من رواة الحديث، الذين ورد عنهم بعض أفكار الغلاة (ص ٣٤٠-٣٤٨).

obeikan.com

١١. محمد بن حبيب: هو أبو جعفر بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي (ت ٢٤٥هـ) ذكر العلماء وأجمعوا عليه أنه كان دائمًا يشتم ويعيب عمر بن الخطاب رضي الله عنه[١].

١٢. الرواجني: هو أبو سعيد عُبّاد بن يعقوب الأسدي من أهل الكوفة (ت ٢٥٠هـ) فقد قال العلماء عنه: إنه من رؤوس المبتدعة.

١٣. الثقفي: هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد هلال بن عاصم بن سعد بن مسعود الثقفي من أهل الكوفة (ت ٢٨٣هـ).

١٤. عبدالرحمن بن خراش: هو أبو محمد بن عبدالرحمن بن يوسف بن سعيد خراش مروزي الأصل (ت ٢٨٣هـ).

١٥. محمد بن زكريا الغلابي: هو أبو عبدالله بن زكريا دينار من أهل البصرة (ت ٢٩٨هـ).

١٦. المنذر القابوس: هو أبو القاسم المنذر بن محمد بن المنذر بن سعيد بن أبي الجهم القابوسي (توفي في أوائل القرن الهجري)

١٧. أحمد الجوهري: هو أبو بكر بن عبدالعزيز الجوهري من أهل الكوفة (توفي في أوائل القرن الهجري)

١٨. ابن عمار الثقفي: هو أبو العباس أحمد بن عُبَيْدالله بن عمار الثقفي (ت ٣١٤هـ) قالوا عنه العلماء: إنه كان كثير السخط وهو من رؤوس الشيعة.

١٩. ابن أبي الثلج: هو أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن أبي الثلج عبدالله بن إسماعيل الكاتب (ت ٣٢٢هـ) أجمع العلماء أنه من رجال الشيعة الموثوقين عند الشيعة.

٢٠. الجلودي: هو أبو أحمد عبدالعزيز بن يحيى بن أحمد بن عيسى الجلودي الأزدي من أهل البصرة (ت ٣٣٢هـ) ذكروا العلماء أنه مصدر ثقة عند الشيعة.

---

(١) عبدالعزيز محمد نور ولي: أثر التشيع على الروايات التاريخية في القرن الأول الهجري، (ص١١٠)، ط١، دار الخضيري للنشر، المدينة المنورة، ١٩٩٦م.

openkan.com

٢١. ابن بابويه القمي: هو أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسي بن بابويه من أهل قم (ت ٣٨١هـ) ذكر العلماء: أنه من رجال الشيعة الموثوقين عندهم[١].

٢٢. المفيد أبوعبدالله محمد بن محمد بن نعمان الحارثي، المشهور بابن المعلم من أهل بغداد (ت ٤١٣هـ) قال عنه العلماء: إنه من مصادر الثقات عند الشيعة، وأنه من رؤوس الشيعة.

٢٣. ابن رستم الطبري هو محمد جرير بن رستم أبو جعفر الطبري (ت ٣٢٩هـ) قال العلماء: إنه كان من رؤوس الشيعة[٢] وهو غير الطبري صاحب التاريخ المشهور، وكثيرًا ما يدلس بعض الشيعة، فيخلط في الرواية بين الاثنين.

٥. خامسًا: رواة من غلاة الشيعة

منهم فرات بن الأحنف بن مشرح بن أبي بحر الهلالي، نقل ابن حبان عن أبي نمير أن فرات يقول: إن علي بن أبي طالب في السحاب، وأنه غالٍ في تشيعه.

ومنهم أبو القاسم نصر بن الصباح البلخي، قالت عنه مصادر السنة والشيعة: إنه من الطيارة، ويقصد بها غالبًا الرمي بالغلو في التشيع.

ومنهم: علي بن حسكة القمي. قالت عنه مصادر الشيعة كالكشي والطوسي في رجالهما: إنه من الغلاة. ووصمه أئمة الشيعة بالغلو.

ومنهم القاسم اليقطيني الشعراني القمي مولى أسد: قال عنه الطوسي: إنه غال. وقال عنه الكشي: إنه يدعي الباب (باب الله)، وأنه نبي[٣].

(١) ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، (١/ ٣٧٢).
(٢) ابن حجر: مصدر سابق.
(٣) سعد الهاشمي: مصدر سابق، (٢٠١-٢٠٦).

obeikan.com

ومنهم رشيد الطائي الهاجري الطائي: نقل عنه أنه ادعى أن عليًّا قد علمه علم البلايا والمنايا، وأنه معصوم، وأنه كان يدعي معرفة سر آل محمد صلى الله عليه وسلم الذي به يكلم الموتى[١]، وادعى تكليم الإمام علي في قبره، وأنه يؤمن بالرجعة[٢].

ومنهم المغيرة بن سعيد (ت ١٢٠هـ)، وقد لعنه الإمام الصادق؛ لأنه يتردد على امرأة يهودية في الكوفة، وهو علم مشهور بالغلو عند السنة والشيعة، إلى درجة ورد اللعن في حقه من بعض الأئمة، فقد ادعى النبوة بالكوفة، كما ادعى برجعة الإمام علي، وادعى بأن الإمام عليًّا يحيي الموتى[٣].

ومنهم بيان بن سمعان النهدي الكوفي (ت ١٢٠هـ)، ادعى أن الإمام عليًّا إله، اتحد ناسوته (جسمه) بالجزء الإلهي، وأن عليًّا يعلم الغيب[٤].

ومنهم جابر بن يزيد الجعفي[٥] ادعى أن النبي أوصى لعلي بالإمامة ومن بعده لأبنائه، كما ادعى بالرجعة، وأن عليًّا والأئمة معصومون، وأن عليًّا دابة الأرض، وادعى أن عليًّا والأئمة يعلمون لغة الطير والحيوان[٦]. وأوردت بعض المصادر أنه يعتقد تحريف القرآن.

إن هؤلاء مجرد نماذج من رواة الشيعة الغلاة، الذين وصمتهم مصادر الشيعة نفسها باللغو، ونسبت إليهم أقوالًا منكرة، ومع ذلك مع الأسف نجد رواياتهم هم وأمثالهم مبثوثة في كتب الحديث عند الشيعة الإمامية، والحقيقة التي تعكسها كتب الرجال عند الشيعة: أن أكثرية الرواة مطعون فيهم بقليل أو كثير، ويدل على ذلك ما ورد من معلومات في كتاب كسر الصنم للبرقعي، الذي أورد فيه أسماء الرواة الواردة في كتاب الكافي للكليني. كما أرجو من القارئ أن يرجع إلى الجدول البياني الذي وضعت فيه أكثرية رواة الشيعة

(١) النجاشي: رجال، (ص ٤٢)، سعد الهاشمي: مصدر سابق: ٢٢٠، سعد الهاشمي: مصدر سابق: ٢٢٨ وما بعدها.
(٢) رجال (ص ٤٩).
(٣) النوبختي: فرق الشيعة، (ص ٨٥ -٨٧)، الكشي: رجال، (؟؟؟؟؟؟؟؟؟)، الطبري: تاريخ، (١٢٩/٧)، البغدادي: الفرق بين الفرق، (ص ٥٩).
(٤) النوبختي: فرق الشيعة، (ص ٥١)، البغدادي: الفرق بين الفرق (ص ٣٣٧).
(٥) النعماني: الغيبة، (ص ٩٢-٩٦).
(٦) المفيد: الإرشاد، (ص ٥٢٦).

المشهورين، فذكرت من طعن بهم من محدثي الشيعة، وسبب الطعن، وعلى أي حال، فإن العبرة التي نخرج منها في هذا البحث: أن هؤلاء كانوا أهم الجسور التي عبرت منها عناصر الديانات القديمة من مجوسية ويهودية ونصرانية.

والحقيقة أنه ليس عبدالله بن سبأ وحده الذي نقل الأفكار اليهودية إلى التشيع، وإنما جملة قوم سمتهم المصادر لكثرتهم بالسبئية، من أمثال المغيرة بن سعيد الذي شهد الإمام الصادق أن المغيرة كان يتردد على بيت يهودية في الكوفة، وبطبيعة الحال فيما يبدو أنه يأخذ عنها مبادئ وأفكار يهودية، يستخدمها ويدسها كأقوال وأحاديث تروى عن أئمة الشيعة، ومن هؤلاء أيضًا: هشام بن الحكم الذي أدخل على التشيع أفكار التجسيم وتشبيه الإله، وقال بفكرة اللاهوت والناسوت، وأنه يزعم أن الله نور يتلألأ، ويرى عصمة الأئمة، وسايره على أفكاره يونس بن عبدالرحمن القمي، وأبو جعفر القمي، وأبو جعفر الأجود، ومحمد بن النعمان صاحب الطاق، ومحمد بن جعفر بن محمد الأسدي الكوفي، وهارون بن سعدان، وعلي بن ميثم التمار. وهذه الأفكار مأخوذة عن اليهودية والنصرانية، وما أوردناه من أسماء هؤلاء الرجال من رواة الحديث والأخباريين نقلوا الأخبار والحوادث التاريخية، وهؤلاء يمثلون في غالبيتهم القرن الأول الهجري، ويعدون دليلًا ماديًّا صارخًا على وجود السبئية واتساع أفكارها، التي تسربت حتى إلى كتب حديث السنة، وهذا أكبر دليل يرد به على منكري عبدالله بن سبأ والسبئية عمومًا.

رواة يكذبون على أئمتهم

وقد بلغ من أثر رواة الشيعة أنهم يكذبون على أئمتهم، وأن ينقلوا أفكارهم المجوسية واليهودية، فيدعون أن الإمام قد قالها، وقد كثر ذلك في مراكز التشيع كالكوفة والمدائن وقم، ومن كثرة هذه الأكاذيب فقد بلغت كثيرًا من الأئمة فأنكروها، وكذبوا رواتها، فمن هؤلاء الكذبة زرارة بن أعين، وهو مولى كوفي كان جده سنسن راهبًا نصرانيًّا في بلاد الروم، قال عنه: إن له كتابًا في الاستطاعة والجبر والعهود، وأن لبيت زرارة أثرًا علميًّا كبيرًا على التشيع، روى زرارة أكثر من ألفي حديث، وكان زرارة يتردد على الإمام الصادق

في وقت الحج، ويبدو أن الإمام اكتشف أكاذيبه فضاق به ذرعًا، فقال عنه: إنه وأصحابه أشر من اليهود والنصارى، ونصح بتركه وتجنبه، فزاد زرارة أكاذيبه على الصادق[١].

وقد طعن زرارة بعلم الإمام الصادق المتعلق بالاستطاعة (الواردة عن الحج في الكتاب)، فلما علم الإمام الصادق بذلك قال: «لعن الله زرارة» كررها ثلاث مرات، كما أورد بذلك الكشي في رجاله. وقد ورد أن الإمام الصادق خاطب أبا الصباح قائلًا: هلك زرارة وبريد ومحمد بن مسلم وإسماعيل الجعفي، روى الكشي بسنده أن زرارة سأل الإمام الصادق عن التشهد، فلما كان جواب الإمام لم يعجبه، قال: «ضرطت في لحيته، وقلت له: لا يفلح أبدًا»، ويبدو أن أفكار الإمام الصادق عن زرارة قد شملت جميع آل أعين من بيت زرارة المشهور في الكوفة، كما نقل الكشي أن آل أعين جميعًا وآخرين من رواة قد تأثروا بآرائهم في الكوفة والإمام بعيد عنهم في المدينة، ومن الواضح أن زرارة وآل أعين وأصحابهم جميعًا يمثلون الأفكار النصرانية الرائجة في ذلك الوقت، والمتداولة في علم الكلام، وهذا يعبر بوضوح كيف أن هؤلاء الكذبة كانوا أحد الجسور التي عبرت منها عناصر الديانة النصرانية إلى الشيعة الإمامية خاصة، وأن روايات زرارة وأصحابه مبثوثة في كتاب الكافي للكليني، وكتاب التهذيب، والاستبصار للطوسي، وكتاب من لا يحضره الفقيه لابن بابويه القمي، فقد بلغت ألفين من هذه الأحاديث، ومع هذا الطعن الوارد في حقه من الإمام الصادق، ولكن بعضًا منهم يوثقون زرارة، منهم: النجاشي في رجاله، ويذكره الطوسي دون أي طعن[٢].

ومنهم أبو الخطاب محمد بن أبي زينب المقلاص الأجدع الأسدي، كان يحمل أسئلة الشيعة في الكوفة إلى الإمام الصادق في المدينة، وبعد مدة اكتشفوا أنه يبدلها بأفكار ومخاريق لم يقلها الصادق، ولكنها انتشرت في الكوفة، ووثق بعضهم به حتى كوَّن فرقة مشهورة سميت بالخطابية[٣].

(١) الكشي: رجال، (ص١٦).
(٢) الكشي: رجال، (ص ٤٥ – ١٥٩)، والطوسي: الفهرست، (ص ١٤١).
(٣) النوبختي: فرق الشيعة، (ص ٦٣).

ونقل إنكار الإمام الصادق على أبي الخطاب، وأنه يماشي السفلة، وادعى أبو الخطاب أن الإمام الصادق قد عينه وصيًّا على الشيعة، ثم ادعى النبوة، وأنه مرسل من الله، وأنه من الملائكة المقربين، وقد دمغ الإمام الصادق أبا الخطاب بالكذب، وشبهه بابن سبأ، الذي يكذب على الإمام علي، وذكر الإمام الصادق أنه بيت علم صادقين، ولكن جملةً من الرجال كانوا يكذبون على أئمة آل البيت، ذكر منهم المختار بن عبيدالله وأبا عبدالله الحارث الشامي وبيان والمغيرة بن سعيد وبزيغًا والسري ومعمرًا وبشارًا الشعيري وحمزة الزيدي وصائدًا الهندي.

ويبدو أن هؤلاء يمثلون نماذج وأمثلة من الكذبة، ومن أمثالهم الكثير الذي لم تحصيه مصادر الشيعة لسبب أو لآخر.

وممن أوردت المصادر الشيعية تكذيب الإمام لهم: جابر بن عبدالله الجعفي[١]، قيل عنه: إنه روى سبعين ألف حديث عن الباقر، وروى أكثر من ذلك عن الصادق، وكل هذا العدد من الأحاديث، فإن الإمام الصادق ينفي دخول جابر عليه مطلقًا، وأنه رآه مرة واحدة عند أبيه الباقر.

فيا ترى كيف تم له أن يروي ذلك العدد الكثير، وهذا موضع تساءل الكشي عنه في رجاله[٢]، قال عنه الإمام أبو حنيفة: ما رأيت أكذب من جابر.

إن هؤلاء النجاشيين كانوا مصدرًا من مصادر المؤرخين، الذين كتبوا عن تاريخ العرب والإسلام، ذكرناهم لتوضيح أنهم كانوا أحد الجسور التي عبرت منها عناصر الديانات الأجنبية إلى كتب التاريخ، وإلى مصادر الشيعة خاصة.

(١) النجاشي: رجال، (ص ١٠٠).

(٢) الكشي: رجال، (ص ٤٥ - ١٥٩)، والطوسي: الفهرست، (ص ١٤١).

obeikan.com

الفصل السادس

بيوت العبادة والكنائس

الكنائس الكلدانية

١. الكنيسة الكلدانية في البصرة في محلة الباشا.
٢. الكنيسة الكلدانية البطريقية ببغداد.
٣. الكنيسة الكلدانية في الموصل في محلة راس الكور.
٤. الكنيسة الكلدانية في كركوك.

كنائس الطائفة اللاتينية

١. الكنيسة اللاتينية في بيروت.
٢. الكنيسة اللاتينية في القدس الشريف.
٣. الكنيسة اللاتينية في بيت لحم.
٤. الكنيسة اللاتينية في يافا في دير تراسانطة.
٥. الكنيسة اللاتينية في يافا المعروفة باسم فريردي لادوقترين.
٦. الكنيسة اللاتينية في باب الخليل في القدس الشريف المعروفة باسم الوردية.
٧. الكنيسة اللاتينية سورديشارينه في بيت لحم.
٨. الكنيسة اللاتينية باسم أوغستين دي لاسومبسيون.
٩. الكنيسة اللاتينية المعروفة بالدومنيكان بالقرب من سُوَر القدس الشريف.
١٠. الكنيسة اللاتينية المعروفة بدام دي نازارت في الناصرة.
١١. الكنيسة اللاتينية المعروفة بالرهان في حيفا.
١٢. الكنيسة اللاتينية للرهبان الكبوشيين في الاسكندرون.
١٣. الكنيسة اللاتينية في مرعش.
١٤. الكنيسة اللاتينية المعروفة باسم دير اللاتينية.
١٥. الكنيسة راهبات لازاريست اللاتينية في محلة القرانتينة في بيروت.
١٦. الكنيسة اللاتينية في الحصن في سنجق حوران.

obeikan.com

١٧. الكنيسة اللاتينية المعروفة باسم ماري دورة يا زايس في القدس الشريف.
١٨. الكنيسة اللاتينية في الناصرة.
١٩. الكنيسة اللاتينية في قرية قناعية في حلب المعروفة باسم الرجال الفرانسيكان.
٢٠. الكنيسة اللاتينية المعروفة عمواس في القدس الشريف.
٢١. الكنيسة اللاتينية المعروفة باسم سام جوزيف دي لاباريسيون في حلب.
٢٢. الكنيسة اللاتينية للراهبات قلوريس في الناصرة في عكا.
٢٣. الكنيسة اللاتينية في القدس الشريف المعروفة باسم سوردوس شارل بورو.
٢٤. الكنيسة اللاتينية باسم الرهبان الفرانسيكان في قرية دير مجلي.
٢٥. الكنيسة اللاتينية ديكتنفرانس فرانسة دي لابريمتيق اوبسروانس في القدس.
٢٦. الكنيسة اللاتينية باسم سُوَر روسن جوزف دي لاباريسيون في عكا.
٢٧. كنيسة ودير باسم دي لاشارينه ودير باسم لازاريست في باب الخليل في القدس الشريف.
٢٨. كنيسة لاتينية في قرية في دمشق.
٢٩. دير في عينتاب.
٣٠. دير في الناصرة.
٣١. دير في قصبة حيفا.
٣٢. دير في القاصرة.
٣٣. كنيسة في جبل صهيون.
٣٤. دير في حيفا باسم المحرقة.

كنائس من الطائفة المارونية

١. كنيسة مارونية في قرية عتينيت في سنجق الشام.
٢. كنيسة مارونية في حلب.
٣. كنيسة مارونية في حيفا.
٤. كنيسة مارونية في ميناء طرابلس الشام.
٥. كنيسة مارونية في حيفا أيضًا.
٦. كنيسة مارونية في قرية دير الأحمر في بعلبك.
٧. كنيسة مارونية داخل دير قنوبيس في طرابلس الشام.

obeikan.com

٨. كنيسة مارونية في يافا.
٩. كنيسة مارونية في قرية عبيل في قضاء صور.
١٠. كنيسة مارونية في صور.
١١. كنيسة في صور أيضًا.
١٢. كنيسة مارونية في بيروت.
١٣. كنيسة مارونية في قرية بيروت.
١٤. كنيسة مارونية في اللاذقية.

كنائس الطوائف الأرمنية

١. طائفة الأرمن الأرثوذوكس.
أ. كنيسة في الإسكندرون.
ب. كنيسة في قصبة عينتاب.
ج. كنيسة في جبل صهيون المعروفة باسم حبس المسيح.
د. كنيسة مريم العذراء في أورفة.
هـ. كنيسة أرمينية في بغداد.
و. كنيسة سورب كبفورق في قصبة مرعش.
٢. طائفة الأرمن البروستانت.
أ. كنيسة في قصبة عينتاب.
ب. كنيسة سرور قريقويو ساورليح في قصبة عينتاب.
ج. كنيسة محلة شكر درة في مرعش.
د. كنيسة في حلب.
هـ. كنيسة عينتاب ومدرستها.
و. بناء مدرسة لطائفة الأرمن البروتستانت في قرية اكبارك صلحاء او شاغي داخل سنجق البركة.
٣. طائفة الأرمن الكاثوليك.
أ. كنيسة في القدس الشريف.
ب. دير وكنيسة في داخل سنجق القدس.

obeikan.com

ج. كنيسة ودار ضيافة في القدس.

د. كنيسة بين زاويتي الطريقة القادرية والطريقة النقشبندية في القدس الشريف.

طائفة البروتستانت و الإرساليات البروتستانية

١. كنيسة بروتستانية باسم اقلاءن خارج القدس الشريف.
٢. بناء مدرسة بروتستانتية في الناصرة في سفا عمرو.
٣. بناء كنيسة ومدرسة في قصبة بقاع العزيز.
٤. كنيسة في قرية بيت جالا التابعة لسنجق القدس الشريف.
٥. بناء مستشفى بروتستانتية في بيت لحم في القدس الشريف.
٦. بناء كنيسة في بيت لحم بروتستانية بالقدس.
٧. إقامة مستشفى للعلاج بالمجان في قصبة صبريا التابعة لسنجق عكا.
٨. دار ومعبد ودار آخر لسكن الرهبان في القدس للبروتستانتية.
٩. بناء كنيسة ومستشفى في حيفا للبروتستانت.
١٠. بناء دار في محلة خرط الزيتون للبروتستانتية.
١١. بناء مستشفى ودار باسم جورج ميشيناري سوسياتى في محلة كرم العصبي في نابلس.
١٢. بناء مستشفى تابعة للبروتستانت في الحي اليهودي في صفد.
١٣. بناء مدرستين للبروتستانت في القدس الشريف.
١٤. بناء دار ومدرسة تابعة للبروتستانت في قرية بيت ساحور في القدس.
١٥. بناء كنيسة خارج قصبة يافا.
١٦. بناء مستشفى تابعة للبروتستانت في محلة زيتون في غزة.
١٧. إقامة مستشفى في حي دوار مريسة.
١٨. بناء كنيسة وإقامة دار للبروتستانت في القدس.
١٩. إقامة مدرسة للبروتستانت في محلة الحصن.
٢٠. بناء مستشفى للبروتستانت في قرية بيت جالا في القدس.
٢١. بناء مستشفى للبروتستانت في قصبة الناصرة.
٢٢. إقامة مستشفى للبروتستانت في محلة الساعي في البصرة.

openkan.com

٢٣. كنيسة بروتستانتية في قصبة يافا.
٢٤. كنيسة بروتستانتية في العزوان في قصبة صفد.
٢٥. إقامة معبد ومدرسة تابعة للبروتستانت في القدس.
٢٦. مدرسة ودار تابعة للبروتستانت في قرية دير الغزال في قضاء بعلبك.
٢٧. كنيسة في القدس الشريف للبروتستانت.
٢٨. إقامة كنيسة ومدرسة في قرية سنجكة (داخل ولاية وان)، وتم نقلها إلى قرية بيبادي في قضاء العمادية داخل ولاية الموصل.
٢٩. إقامة مستشفى تابعة للبروتستانت في محلة بتاوين ببغداد.
٣٠. بناء كنيسة في محلة زيتون في بيروت تابعة للبروتستانت.
٣١. بناء مدرسة للبروتستانت في طرابلس الشام.
٣٢. بناء جمعية الإنجيل المقدس بالقدس الشريف للبروتستانت بالمنطقة المعروفة باسم مورستان.
٣٣. بناء مستشفى للبروتستانت في محلة دركزنلي.
٣٤. كنيسة بروتستانتية في قرية راشيا الفخار في قضاء حاصبيا بولاية سورية.

طائفة الروم الأرثوذوكس

١. كنيسة الروم الأرثوذوكس في قصبة إنطاكية المعروفة باسم وست باولو وتبرو.
٢. كنيسة الروم الأرثوذوكس في قضاء عجلون.
٣. كنيسة الروم الأرثوذوكس في قضاء في قرية الحصن بالقدس.
٤. كنيسة الروم الأرثوذوكس في قرية الحصن أيضًا.
٥. كنيسة الروم الأرثوذوكس في قرية معلول في الناصر في عكا.
٦. كنيسة الروم الأرثوذوكس في قرية بيرة في القدس.
٧. إقامة كنيسة في قرية أريحا بالقدس تابعة للروم الأرثوذوكس.
٨. إقامة كنيسة في قرية عين كارم بالقدس الشريف تابعة للروم الأرثوذوكس.
٩. كنيسة الأرثوذوكس في قرية فحيص داخل سنجق البلقا بالقدس.
١٠. كنيسة الروم الأرثوذوكس في قرية كفركنا في الناصرة.
١١. كنيسة الروم الأرثوذوكس المعروفة باسم مريم العذراء في قرية إداب.
١٢. كنيسة الروم الأرثوذوكس في قصبة نابلس ودير أيضًا.

obeikan.com

١٣. كنيسة للروم الأرثوذوكس في قرية كفر مشنكة في راشيا.
١٤. كنيسة للروم الأرثوذوكس في قرية داخل قصبة حمص.
١٥. كنيسة للروم الأرثوذوكس في قضاء دوما داخل الشام.
١٦. كنيسة للروم الأرثوذوكس في قرية رعين في قضاء بعلبك.
١٧. كنيسة للروم الأرثوذوكس في قرية راما في قضاء عكا.
١٨. كنيسة للروم الأرثوذوكس في قرية مادبا في قضاء السلط.
١٩. كنيسة للروم الأرثوذوكس في بيت ساحور في القدس الشريف.
٢٠. كنيسة للروم الأرثوذوكس في قصبة الرملة داخل يافا.
٢١. مدرسة وكنيسة داخل مدينة بيروت تابعة للروم الأرثوذوكس.
٢٢. كنيسة للروم الأرثوذوكس في قرية جديدة تابعة لسنجق عكا.
٢٣. كنيسة للروم الأرثوذوكس في قرية بصة تابعة لسنجق عكا.
٢٤. كنيسة للروم الأرثوذوكس في قرية بلاط في قضاء مرجعيون.
٢٥. كنسية الروم الأرثوذوكس المعروفة باسم بشاري في قصبة الناصرة بسنجق عكا.
٢٦. كنيسة الروم الأرثوذوكس في قرية المجيدي في قضاء الناصرة.
٢٧. كنيسة الروم الأرثوذوكس في الموصل.
٢٨. كنيسة الروم الأرثوذوكس في قرية فحيص.
٢٩. مدرسة الروم الأرثوذوكس في حي الأشرفية ببيروت.
٣٠. كنيسة الروم الأرثوذوكس في قرية بلاط بنابلس.
٣١. كنيسة للروم الأرثوذوكس في قرية إربد في قضاء عجلون في سنجق حوران.
٣٢. كنيسة الروم الأرثوذوكس في قرية حريث حذور التابعة لقضاء المحمدية.
٣٣. كنيسة الروم الأرثوذوكس ودار أيضًا ومستشفى أيضًا باسم سن جورج في شارع بكر في بيروت.
٣٤. مستشفى للروم الأرثوذوكس في بيروت.
٣٥. كنيسة للروم الأرثوذوكس في قصبة حيفا.
٣٦. كنيستي الروم الأرثوذوكس المعروفة باسم سن جاور جيوسفى محلة الشرقية ببيروت، وباسم مارم في زقاق مقبرة الروم في محلة الشرقية.
٣٧. كنيسة الروم الأرثوذوكس في قرية ترشيحا في صفد.

obeikan.com

٣٨. كنيسة الروم الأرثوذوكس في القدس الشريف.
٣٩. كنيسة الروم الأرثوذوكس في قصبة السلط.
٤٠. كنيسة الروم الأرثوذوكس في محلة دحداح ببيروت.
٤١. كنيسة الروم الأرثوذوكس في محلة الدركة ببيروت.
٤٢. كنيسة الروم الأرثوذوكس في قرية تيما في قضاء البقاع.
٤٣. كنيسة الروم الأرثوذوكس في قصبة الكرك.
٤٤. كنيستي الروم الأرثوذوكس في قرية طورزيتا والثانية في قرية عين كارم في القدس.
٤٥. كنيسة الروم الأرثوذوكس في محل كرمة خارج قصبة يافا.
٤٦. كنيسة الروم الأرثوذوكس في القدس الشريف.
٤٧. كنيسة الروم الأرثوذوكس في قصبة خليل الرحمن في سنجق القدس.

طائفة الروم الكاثوليك

١. كنيسة الروم الكاثوليك في محلة الإسلام.
٢. كنيسة الروم الكاثوليك في محلة العزيزية داخل حلب.
٣. كنيسة الروم الكاثوليك في قاع راشيا.
٤. كنيسة الروم الكاثوليك في بعلبك.
٥. دار للغرباء للروم الكاثوليك في خارج قصبة حيفا.
٦. كنيسة الروم الكاثوليك في قصبة الناصرة.
٧. كنيسة الروم الكاثوليك في حي المصيطبة في بيروت.
٨. كنيسة الروم الكاثوليك بقضاء مرجعيون.
٩. كنيسة الروم الكاثوليك في قرية الشيخ محمد التابعة لقصبة عكا بسنجق عكا.
١٠. كنيسة الروم الكاثوليك في قصبة الأسكندرون.
١١. كنيسة الروم الكاثوليك في قرية راشيا الفخار تابعة لقضاء حاصبيا.
١٢. كنيسة الروم الكاثوليك في قصبة صيدا.
١٣. كنيسة الروم الكاثوليك في صفدا البطيخ في قضاء مرجعيون.
١٤. كنيسة الروم الكاثوليك في محل الزيادة في محلة عفية الصّباغ في القدس.
١٥. كنيسة الروم الكاثوليك في قرية رعاية تابعة لقضاء مرجعيون.
١٦. كنيسة الروم الكاثوليك في قرية مينارة بقضاء عكا.

obeikan.com

١٧. كنيسة الروم الكاثوليك في قرية دير ميماس.
١٨. كنيسة الروم الكاثوليك في قصبة شفا في عكا.
١٩. كنيسة الروم الكاثوليك في قصبة صور في ولاية بيروت.
٢٠. كنيسة الروم الكاثوليك في قصبة الأسكندرون.
٢١. كنيسة الروم الكاثوليك في قرية تبنين في قضاء صور.
٢٢. كنيسة الروم الكاثوليك قانا من قضاء صور.
٢٣. كنيسة الروم الكاثوليك في قرية طوعان لقضاء الناصرة.
٢٤. كنيسة الروم الكاثوليك في ولاية يافا لقضاء الناصرة.
٢٥. كنيسة الروم الكاثوليك في ولاية بيروت في قرية صفد.
٢٦. كنيسة الروم الكاثوليك في ولاية بيروت في قرية حسن.
٢٧. كنيسة الروم الكاثوليك في قرية جياع.
٢٨. كنيسة الروم الكاثوليك في قرية كفركنا لقضاء الناصرة.
٢٩. كنيسة الروم الكاثوليك في قرية شعب سنجق عكا.
٣٠. كنيسة الروم الكاثوليك في دير دفئا من صور بولاية بيروت.
٣١. بناء مدرسة ببيروت تابعة لكنيسة الروم الكاثوليك.

طائفة السريان الأرثوذوكس

١. كنيسة السريان الأرثوذوكس في محلة النجارين بالموصل.
٢. كنيسة السريان الأرثوذكس في قصبة قنطا مركز قضاء وادي الدليم بولاية اليتم سوريا.
٣. كنيسة السريان الأرثوذوكس في قرية زيدل بقضاء حمص.

طائفة السريان الكاثوليك

١. مدرسة. للسريان الكاثوليك في الشام.
٢. كنيسة السريان في قرية زيدل في حُمص.
٣. كنيسة السريان الكاثوليك في محلة الباشا في البصرة.
٤. كنيسة الكاثوليك في محلة محمدية بقصبة حُمص.
٥. كنيسة الكاثوليك ودير أيضًا داخل القدس الشريف.

obeikan.com

الطائفة اليهودية

١. بناء مستشفى روتشيلد في القدس لليهود.
٢. مدرسة لتعليم الموسويات قصبة القدس على شرط ألا تقبل طلبة مسلمين.
٣. مستشفى لعلاج فقراء الملة الموسوية في صفد.
٤. معابد في عاقر وعيون فارة ومليس في يافا.
٥. معبد في محلة فشل ببغداد.
٦. معبد في حي التكية ببغداد.
٧. كنيس في محلة مينة الحصن في بيروت[١].

هذا ما أحصيناه من كنائس في العهد العثماني في بقعة محدودة من العالم العربي، أوردناها على سبيل المثال لا الحصر.

أثر الكنائس النصرانية على العرب

الكنائس النصرانية في الشام

ونعني بالشام معناها الجغرافي الواسع والقديم، ويرتبط انتشار النصرانية في الشام بالاحتلال الروماني واعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحية أواخر القرن الأول الميلادي، فقد نشر الرومان معهم المسيحية بشكل رسمي، فأقاموا الكنائس والأديرة لتقوم بنشر المسيحية، فكانت اللغة السريانية والعربية غالبًا هي لغة الكتاب الديني في الشام في هذه المدة، وعادة ما يشار إلى يوحنا الدمشقي من أوائل من كتب بالسريانية والعربية عن النصرانية[٢].

كما عكس الشعر العربي التراث النصراني في هذه الحقبة والمنطقة، وربما كان محفوظًا ومتداولاً دون أن يكون مكتوبًا، وفي الكنائس والأديرة كانت تتلى الصلوات المسيحية باللغة العربية، فيسمعها ساكن الأديرة والكنائس حتى من البدو، فيتناقلون المعاني والثقافة السائدة، وقبل الإسلام أصبح بين العرب نساك وقصاص، يقصون ما في

(١) عبدالرحمن أبو حسين صالح سعداوي: الكنائس العربية في السجل الكنسي، جمع وترجمة وتحقيق / ١٨٦٩- ١٩٢٢، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية.

(٢) يوحنا الدمشقي: كتاب اسمه (منهل المعرفة) استقى منه أوائل الصوفية المسلمون كثيرًا.

obeikan.com

العهد القديم والجديد (التوراة والإنجيل)، وذكر منهم تميم بن أوس الداري، وأخاه نعيم الداري، والأسود بن سريع بن حمير بن عبادة بن النزال التميمي، ومن أوائل العرب الذين نقلوا علوم أهل الكتاب، التي نقلها العرب المسيحيون إلى الفكر الإسلامي، وبعض الأفكار الواردة فيما يسمى علوم في العلوم الإسلامية (بعلم الكلام) كصفات الخالق، وما تفرع منها: الميعاد والحساب والعقاب ويوم القيامة.

إلا أن أهم تأثيرات النصرانية على الفكر العربي والإسلامي هو قيام علماء النصرانية بنقل الفلسفة الهيلينية اليونانية، التي أثرت كثيرًا في مؤلفات فلاسفة المسلمين كالكندي والفارابي وابن سينا، فقد أضحت النصرانية الجسر الذي عبرت منه الفلسفة اليونانية إلى العرب المسلمين، وهذا الجانب الفلسفي الروحي فيما يسمى في النصرانية بعلم الإلهيات هو الذي أثر كثيرًا في الطرق الصوفية الإسلامية التي وردت كثيرًا من الفكر النصراني ذي الأصول اليونانية، ومن الفرق الصوفية انتقلت هذه الأفكار إلى الشيعة، كما سنرى ذلك، وبتطور الزمن اتسعت موضوعات علم الكلام وغيره من العلوم المتشابهة بين المسيحية والمسلمين كموضوعات: الإيمان والإرادة والتثليث والتوحيد وأزلية الكلمة والتجسيد والفداء والخير والشر والجبر والقدر وخلق القرآن وخلق التوراة والإنجيل. ومن أهم رجال الدين العرب المسيحيين الذين كان لهم أثر وكتابات باللغة العربية، أو قاموا بالترجمة من السريانية غير من ذكرناهم آنفًا منهم الجاثليق أبو الفرج بن عبدالله بن الطيب، ومنهم إسطفان الرملي، ومنهم ثيوودر أبو قرة، ومنهم أيضًا إيليا النصيبى وحنين بن إسحاق، وقسطا بن فوقا البعلبكي، وَعبدالمسيح الكندي كاتب يحيى بن عدي، حتى إن بعضهم كان يجادل بعض شيوخ الإسلام، كما هو في رسالة عبدالمسيح بن إسحاق الكندي إلى الشيخ عبدالله الهاشمي[١].

أما أسماء الكنائس النصرانية في الشام فقد ذكرناها سابقًا، وأهمها:

١. كنسية أنطاكية للروم الأرثوذوكس.
٢. كنائس مدينة عابود: عابود قرية صغيرة قرب رام الله في فلسطين، فعلى سبيل المثال في خارج هذه القرية وداخلها الكنائس الآتية:

(١) الأب ميشال نجم: تاريخ أنطاكية للروم الأرثوذوكس (آية خصوصية)، (ص ١٦٤) جامعة البلمد ١٩٩٩م.

أ. كنسية القديسة مريم العذراء.
ب. كنيسة القديس عوبديا.
ج. كنيسة القديس ثيودوروس.
د. كنيسة القديسة أنطاسيا.
هـ. كنيسة ودير القديسة بربارة.
و. كنيسة الشعيرة.
ز. كنيسة الميسة.
ح. دير سمعان.
ط. دير مارالياس (الكوكب)[١].

فإذا كان مثل هذا العدد من الكنائس في هذه القرية الصغيرة في الشام (فلسطين)، فما بالك بالمدن والقرى الأخرى، مع ملاحظة أن الكاتب قد تتبع الكنائس والأديرة المفقودة قديمًا في هذه القرية، وبناء الكنائس في الدولة الإسلامية مستمر، ويختلف حسب العصور، فبعضها يبنى بترخيص رسمي، وبعضها الآخر دون ترخيص.

وقد تتبع الكاتبان عبدالرحيم أبو حسين وصالح سعداوي في كتابهما (الكنائس العربية في السجل الكنسي العثماني) تسجيل الدولة العثمانية للكنائس، وصدور تراخيص ببنائها[٢].

أما الأديرة النصرانية فهى كثيرة لا تحصى، سواء داخل المدن والقرى والجبال، أو تلك التي تقع في طرق السفر، والتي تمثل خانات لنزول المسافرين، حيث القسس يقدمون للمسافرين الطعام والمأوى وللشعراء الشراب، وعلى سبيل المثال فقد قام السيد حبيب زياد بالكتابة وإحصاء الأديرة، التي كانت في الشام والعراق ومصر، والسلاطين الذين زاروها مثل:

(١) إبراهيم نيروز: كشف المفقود من كنائس عابود، (ص ٩)، وما بعدها، منشورات بيت المقدس.
(٢) عبدالرحيم أبوحسين وصالح سعداوي: الكنائس العربية في السجل الكنسي العثماني، انظر: (ص ٣٥٥) التي توضح صدور تراخيص رسمية عثمانية، ببناء كُنُس يهودية أيضًا.

obeikan.com

١. دير مران بدمشق: استوطنه يزيد بن معاوية.
٢. دير أبا صليبا بدمشق: تردد عليه كثيرًا الوليد بن معاوية وبعض الخلفاء العباسيين.
٣. دير يوحنا: تردد عليه الوليد بن زيد أيضًا.
٤. دير الرصافة: تردد عليه هشام بن عبدالملك.
٥. دير السوسي ببغداد: تردد عليه ابن المعتز.
٦. دير عبدون: زاره العديد من الملوك والخلفاء.
٧. دير مرمار (مارمار): زاره ابن المعز والخليفة المأمون.
٨. دير زكي بالرقة: زاره العديد من الملوك.
٩. دير مرتومان (مار يوتان) بالأنبار: زاره خلفاء عدة.
١٠. دير مرمروثا في حلب، نزل به سيف الدولة الحمداني.
١١. دير باعربا قرب الموصل، نزل به سيف الدولة.
١٢. دير الأعلى بالموصل، نزله كثير من الولاة.
١٣. دير القصير بمصر: زاره أحمد بن طولون والأمير تميم بن المعز الفاطمي[١].

وقد أحصى الكاتب حبيب زيات في كتابه الديارات النصرانية في العصر الإسلامي حوالي أربعة وأربعين ديرًا، ووصف ما كان يدور فيها من صلوات وتلاوة، ومن خدمات تقدم للنزلاء من طعام وشراب، وذكر أديرة مخصوصة للنساء، وما يتم زراعته خارج الدير من محاصيل تستخدم لإطعام سكانها، وكذلك ما يتم من معازف وضرب للنواقيس وتغزل بغلمان وراهبات الدير.

وقد استل يوحنا الحبيب صادر الأنطوني من الجزء الثاني مما كتبه ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان، حيث أحصى ووصف أكثر من مئة دير، نقل ما كتبه ياقوت عن كل دير اسمه وموقعه وما يدور حوله أو فيه من أحداث أو أنشطة فكرية لعلماء وشعراء من الفئات[٢].

(١) حبيب زيات: الديارات النصرانية في الإسلام، (ص ٣٥)، ط ٣، دار المشرق.
(٢) يوحنا الحبيب صادر الأنطوني: الديارات في معجم البلدان ياقوت الحموي، بيروت، ١٩٨٦م، دار صادر.

obeikan.com

إن أثر الكنائس والأديرة التي كانت منتشرة في بلاد العرب والمسلمين كبير على الفكر العربي، خاصة ما تعلق بالديانة النصرانية، التي تتحدث عن صفة المسيح، وهل له صفة إلهية، أو أن الله قد حل به، وما إلى ذلك من أفكار انتقلت إلى بعض الطوائف المسلمة الصوفية وإلى الشيعة، الذين استعاروا صفات المسيح ومريم، لكل من علي وفاطمة والحسين، وسنقوم بتفصيل هذا الأثر المهم فيما بعد، وما الغرض من إيراد هذا الكم الكبير من الكنائس والأديرة المنتشرة قديمًا في حارات سكن العرب والمسلمين، إلا إلقاء الضوء على حجم هذا الجسر الكبير، الذي عبرت منه أفكار الديانة النصرانية إلى الشيعة، كما سنرى ذلك في موضعه مفصلًا.

أثر علماء اليهود العرب في المجتمع العربي

بين اليهود العرب من اهتم بالأمور العلمية من ثقافة وشعر وتاريخ وعلوم رياضية، وكان التوجه واضحًا أيام ازدهار الحضارة الإسلامية، ومؤلفاتهم كانت بالعربية والقليل باللغة العبرية أو السريانية قديمًا، وبلا شك فإن مؤلفاتهم أثرت وشاركت في بناء الفكر العربي سلبًا أو إيجابًا، والكثير من هؤلاء اليهود قد دخلوا الإسلام، فأصبح أثرهم مضاعفًا.

وفي العصر الحديث دفعت هذه الظاهرة انتباه الكاتب اليهودي شموئيل موريه في فلسطين، فألف فهرسًا لمؤلفات اليهود العرب خاصة تلك الموجودة في القدس ومكتباتها، وفي الجامعة العبرية، وكان كتابه بعنوان (فهرس المطبوعات العربية التي ألفها أو نشرها الأدباء والعلماء اليهود) بعناية معهد بن تسيقي لدراسة الجاليات اليهودية في الشرق، التابع لمؤسسة ياد إسحاق بن تسيقي والجامعة العبرية- القدس ١٩٧٣م، وأهم محتويات تلك المؤلفات تخص موضوعات أدبية وتاريخ اليهود تجارة واقتصادًا وتراجمًا وسيرًا لعلماء يهود، وتعليم اللغة العربية والعبرية، وشؤون الطوائف اليهودية في البلاد العربية والصهيونية، والصهاينة العرب في إسرائيل (القراؤون - طائفة يهودية)، وكتب في الديانة اليهودية ومؤلفات ليهود أسلموا، وهذا يعكس بعض الأثر اليهودي في المجتمع العربي في زمن متأخر وقصير، فكيف بأثرهم التاريخي الطويل بين العرب.

المدارس اليهودية

المدارس اليهودية: يتمتع اليهود في العراق بالحرية منذ مطلع القرن التاسع عشر، وكان لهم قوة تجارية ومالية خاصة ببغداد والبصرة وأربيل، وأنتج هذا نفوذًا سياسيًّا اعتمد عليه البريطانيون عند احتلال العراق بقيادة مود سنة ١٩٢٠م إلى ١٩٢٤م، وهذا النفوذ مكن اليهود من إنشاء مدارس يهودية عدة في العراق منها، أولاً:

١. في العهد العثماني

١. مدرسة (الإليانس) الابتدائية والمتوسطة للبنين في بغداد، وكان يدرس في هذه المدرسة التوراة والتلمود واللغة العبرية والفرنسية، وتضم المدرسة كنيسًا يهوديًّا للعبادة، وكان عدد الطلاب عام ١٩٤٩م- ٩٨٠ تلميذًا في الابتدائي والمتوسط، وقد تخرج معظم أبناء اليهود ببغداد من هذه المدرسة.

٢. مدرسة مدراش تلمود وتوراة: وقد تأسست ببغداد سنة ١٨٣٢م، وقد اعتنت بالتعليم الديني والثقافة اليهودية، وقد بلغ عدد طلابها سنة ١٩٤٩م ما يقرب من ١٣٠٠ طالب.

٣. مدرسة لورا خضوري الابتدائية والمتوسطة للبنات: وقد تأسست سنة ١٨٩٣م، وقد بلغ عدد طالباتها وطلابها سنة ١٩٥٠م ما يقرب من ١٣٨٨ فردًا.

٤. مدرسة رفقة نورائيل الابتدائية للبنات: وقد تأسست عام ١٩٠٢م، وبلغ طلابها ١٩٢٠م ما يقرب من ٣٣٩ تلميذًا.

٥. مدرسة مدراش مندالي للبنين: وقد تأسست سنة ١٩٠٧م، وبلغ عدد طلابها سنة ١٩٤٩م حوالي ٨٧٠ طالبًا.

٦. مدرسة راحيل سمحون الابتدائية: وقد تأسست عام ١٩٠٩م من قبل جمعية التعاون اليهودية، وفي طابقها الأسفل تأسس كنيس يهودي، وكان عدد طلابها سنة. ١٩٤٩م ما يقرب من ٦٦٩ فردًا.

٧. فرع مدرسة الإليانس في البصرة: وقد تأسست سنة ١٩٠٣م، وبلغ عدد طلابها سنة ١٩١٠م ما يقرب من ٢٨٥ طالبًا.

openkan.com

٨. فرع مدرسة الإليانس في الموصل. الذي تأسس عام ١٩٠٧م، وبلغ عدد طلابها عام ١٩١٠م حوالي ٢٠٤ طلاب.
٩. فرع مدرسة الإليانس في الحلة: الذي تأسس سنة ١٩٠٧م، وبلغ عدد طلابها عام ١٩١٠م ما يقرب من ١٧٥ طالبًا.
١٠. فرع مدرسة الإليانس في العمارة: وقد تأسست عام ١٩١٠م، وبلغ عدد طلابها في العام الدراسي حوالي ١٧٨ طالبًا.
١١. فرع مدرسة الإليانس بمدينة خانقين: وتأسست عام ١٩١٣م، وقد بلغ عدد طلابها حوالي ٧٠ طالبًا[١].

٢. في العهد الانتداب البريطاني

وفي عهد الانتداب البريطاني للعراق نشط اليهود خاصة ببغداد والبصرة بتأسيس مدارس يهودية عدة، منها:

١. المدرسة الوطنية الابتدائية للبنين: وقد تأسست عام ١٩٢٣م، وقد بلغ طلابها سنة ١٩٤٩م من ٥٤٨ تلميذًا، وكان مديرها اليهودي عزرا حداد.
٢. مدرسة نؤم وطوبة نورائيل الابتدائية للبنات: وقد تأسست عام ١٩٢٤م، وبلغ عدد طلابها في العام ١٩٤٩م ما يقرب من ٣٦٦ طالبة.
٣. مدرسة برديس هيلديم (فردوس الأولاد) الابتدائية: وقد تأسست عام ١٩٢٤م أسسها أهرون ساسون، وقامت هذه المدرسة دون ترخيص، وكانت تنادي علنًا بالتعاليم الصهيونية المعروفة، وتدرس باللغة العبرية، وبلغ عدد طلابها ٣١٦ طالبًا.
٤. مدرسة شماش الإعدادية للبنين: تأسست عام ١٩٢٨م، وقام بتأسيسها يعقوب شلومو شماش بمساعدة من اليهود البريطانيين، وكانت تدرس اللغة العبرية والإنجليزية، وشهادتها مقبولة من جامعة لندن، وبلغ عدد طلابها سنة ١٩٤٩م ٤٤٧ طالبًا.

(١) وبعد الإسلام احتلت إيران العراق في مناسبات كثيرة، أهمها في العهد البويهي، ثم في العهد الصفوي، ثم في العهود المتأخرة.

obeikan.com

٥. مدرسة مسعودة سلمان الابتدائية للبنين: تأسست في سنة ١٩٣٠م، وكان بها كنيس يهودي وبلغ عدد طلابها عام ١٩٤٩م ما يقرب من ٣٩٣ طالبًا. ومؤسستها هي اليهودية مسعودة سلمان.

٣. في العهد الملكي

منذ تأسيس الدولة العراقية والعهد الملكي فيها نشط اليهود في العراق، وأسسوا مدارس كثيرة فيها:

١. مدرسة منشي طالح الابتدائية للبنين: تأسست سنة ١٩٣٥م للطلاب الفقراء، وبُنِيَ فيها كنيس يهودي، واشترط مؤسسها تدريس الديانة اليهودية، وقد بلغ عدد طلابها سنة ١٩٤٩م ما يقرب من ١١٧٧ طالبًا.
٢. المدرسة الثانوية الأهلية المسائية للبنات: وقد تأسست عام ١٩٤١م، وبلغ عدد طلابها في العام ١٩٤٩م ما يقرب من ٣٠٩ طالبات.
٣. مدرسة فرنك عيني المتوسطة: تأسست عام ١٩٤١م على يد الثري اليهودي فرنك، وبلغ عدد طلابها في العام ١٩٤٩م حوالي ٥٢٣ طالبًا.
٤. المدرسة الإعدادية الأهلية المسائية للبنين: تأسست عام ١٩٤٤م، وبلغ عدد طلابها سنة ١٩٤٩م ما يقرب من ١١٥ طالبًا.
٥. مدرسة مسعودة يوسف شمطوب الابتدائية للبنين، ومؤسستها هي مسعودة يوسف شمطوب، وكان يوجد بها كنيس لليهودية، وبلغ عدد طلابها سنة ١٩٤٩م حوالي ٤٥٢ تلميذًا.
٦. مدرسة مثير إبراهيم طريق للبنات: تأسست عام ١٩٤٦م على يد مديرها مثير إبراهيم طريق، وبلغ عدد طلابها عام ١٩٤٩م ما يقرب من ٤٣٥ طالبة.
٧. المدرسة المتوسطة الأهلية للبنين: وقد تأسست عام ١٩٤٨م، وبلغ عدد طلابها في سنة ١٩٤٩م ٢٢٨ طالبًا.
٨. المدرسة المتوسطة الأهلية المسائية للبنين: وقد تأسست في عام ١٩٤٨م، وبلغ عدد طلابها سنة ١٩٤٩م ما يقرب من ٢٠٤ طلاب.

obeikan.com

٩. مدرسة مناحيم طالح دانيا للبنات الابتدائية: قد تأسست على يد مناحيم دانيال اليهودي، وبلغ عدد طالباتها سنة ١٩٤٩م حوالي ٤٦٠ تلميذة.
١٠. مدرسة حسقيل مناحيم المهنية للبنات: وقد تأسست عام ١٩٤٧م عَلى يد عزرا مناحيم دانيال، وقد بلغ عدد طالباتها سنة ١٩٤٩م ما يقرب من ١٢١ طالبة.

إن هذا العدد الكبير من المدارس اليهودية في إقليم محدد من ديار العرب والمسلمين يعكس الأثر القديم والحديث لليهودية على المجتمع العربي والإسلامي، وإنه إن لم يكن بأيدينا إحصاء للمدارس اليهودية القديمة في ديار العرب قبل الإسلام أو بعده، لكن ما أوردناه من إحصائيات يعكس الأثر القديم؛ ذلك أن الحاضر هو امتداد للماضي، يستشف منه الآثار التي تركتها الديانة اليهودية في المجتمعات العربية والإسلامية، حيث يدور النقاش في التاريخ اليهودي وطبيعة الأنبياء وصفات الخالق، وهل التوراة مخلوقة أم هي أزلية مع الخالق، والكلام عن أنبياء بني إسرائيل وما إلى ذلك من أفكار وتعاليم يهودية عبرت إلى الفكر الشيعي بطريقة أو بأخرى سواء عن طريق المدارس الصوفية أو بشكل مباشر من يهود دخلوا الإسلام، كما سنرى ذلك مفصلًا في موضعه.

مدارس أسسها اليهود للطلبة المسلمين والنصارى

لقد فتح اليهود بعض المدارس لمزج الطلبة اليهود والمسلمين والنصارى في بغداد، ومن هذه المدارس: مدرسة الإليانس (الاتحاد)، وكان الطلبة الإيرانيون في العراق في تلك المدة يقبلون على الدراسة في هذه المدارس، لشعورهم بأنهم أقرب لليهود من العرب، وكان لمدارس الإليانس هذه فروع في البصرة والعمارة والموصل، وقد خدمت المدارس الحركة الصهيونية كذلك المصالح البريطانية والفرنسية على السواء.

مناهج الدراسة في المدارس اليهودية

إن أهم أهداف هذه المدارس هو تعليم ونشر التعاليم اليهودية، حسب ما جاءت في شروح التوراة والتلمود وتعاليم الرابان، ويتيح ذلك أيضًا تدريس التاريخ اليهودي منذ مراحله الأولى، وخاصة ما يتعلق منها بمدينة أورشليم والسبي البابلي، وموقف العرب

من اليهود قبل الإسلام وبعده، وكيف هب ملك الفرس لمناصرة يهود العراق (يهود بابل)، وإرجاعهم إلى أورشليم، وكل هذه التعاليم قصد بها الإساءة للعرب والمسلمين خاصة، حينما طردوا اليهود من يثرِب ونجران.

المدارس الإيرانية في العراق

تتابع الاحتلال الفارسي للعراق منذ القديم، ففي عهد الملك كورش احتل بابل ٥٣٩ ق.م. وأرجع اليهود الذين سباهم نبوخذ نصر ملك بابل من أورشليم واستخدمهم عبيدًا وفلاحين في العراق بعد أن هدم أورشليم (القدس)، وتتابع احتلال الفرس للعراق حينما تضعف الدولة المركزية، فقد احتلوا العراق في العهد الأخميني والسلجوقي والفرشي والساساني[١] فاستوطن كثير من الفرس العراق، وتجرأ الساسانيون إلى اتخاذ المدائن عاصمة لهم إلى أن جاء الفتح الإسلامي للعراق فَطَهَّر المنطقة من النفوذ الفارسي، ونشر العرب المسلمون رسالة الإسلام إلى إيران وبلاد ما وراء النهر فحسن إسلام إكثرية الإيرانيين، ولكن قلة من المجوس استمروا على عقائدهم القديمة وإن أضمروا الإسلام؛ فكان هؤلاء شوكة ضد الدولة العربية الإسلامية حيث انخرطوا في الحركات السرية والشعوبية فكانوا معول هدم.

ونحاول في هذه العجالة إلقاء الضوء على المدارس الإيرانية في العراق، وذلك:

١. في العهد العثماني

١. مدرسة الإخوة الابتدائية للبنين: وقد تأسست في الكاظمية، وقد بلغ عدد طلابها ٦٥١ طالبًا.
٢. المدرسة الحسينية الابتدائية المتوسطة المختلطة: وقد تأسست في كربلاء عام ١٩٠٨م. وكان عدد طالباتها يقل ويزداد حسب النفوذ السياسي لإيران على العراق.

(١) د. فاضل البراك: المدارس اليهودية والإيرانية في العراق، (ص ٩٣)، وما بعدها.

٣. المدرسة العلوية الابتدائية المختلطة والمتوسطة للبنين في النجف: وقد تأسست عام ١٩٠٩م من قبل الهيئة العلمية في النجف، وقد بلغ عدد طلابها أقصى مداه سنة ١٩٧١م ما يقرب من ١١٤٨ طالبًا.

٤. مدرسة الشرافة الابتدائية والمتوسطة والإعدادية للبنين في بغداد: تأسست ببغداد سنة ١٩١٣م، وفي سنة ١٩٥١م أخذت بناية المدرسة اليهودية المسماة مدرسة شماش اليهودية السابق ذكرها، وبلغ عدد طلابها سنة ١٩٥٧م ما يقرب من ٤٠٤ طلاب[١] [٢].

٢. المدارس الإيرانية في عهد الانتداب البريطاني والعهد الملكي

١. مدرسة بهلوي الابتدائية للبنين في البصرة: تأسست عام ١٩٢٠م، وبلغ عدد طلابها ٢٥٦ طالبًا عام ١٩٧٠م.

٢. مدرسة شهر بانو الابتدائية للبنات في الكاظمية: فتحت عام ١٩٥٧م من غير موافقة رسمية إلى أن تمت الموافقة على تأسيس مدرستين: شهر بانو، وثريا عام ١٩٦٠م، وبلغ عدد طلابها ٤٠٩ طلاب في ١٩٦٧م.

٣. مدرسة ثريا الابتدائية للبنات ببغداد: تأسست عام ١٩٥٧م، وبلغ عدد طالباتها سنة ١٩٦٥م ما يقرب من ٢٢٠ طالبة.

واستمرت إيران بتأسيس كثير من المدارس في العراق، حتى بلغ عددها سنة ١٩٨٠م اثنتا عشرة مدرسة، كانت ببغداد والكاظمية وكربلاء والنجف والبصرة، وبلغ مجموع طلابها سنة ١٩٦٧م ما يقرب من ٤٦٧٧ طالبًا وطالبة كلها تدرس المناهج الإيرانية والعلوم الدينية عند الشيعة بما فيها عقائد الشيعة وتاريخها، ويقوم على ذلك مدرسون ترسلهم

(١) د. فاضل البراك: المدارس اليهودية والإيرانية في العراق، (ص ٦١)، وما بعدها، بغداد، ١٩٨٤م. عالية أحمد سوسة: حول النشاط الصهيوني في العراق في الثلاثينيات، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد، ١٩٧٩م، (ص ٨١)، وما بعدها.

(٢) عالية أحمد سوسة: حول النشاط الصهيوني في العراق في الثلاثينيات، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد، ١٩٧٩م، (ص ٨١)، وما بعدها. يوسف غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، (ص ٣٠٣)، وما بعدها، ط ٤، الفرات للنشر التوزيع، بيروت، ٢٠٠٩م.

إيران إلى العراق أو تختار من شيوخ الشيعة العراقيين، وبلغ نفوذ هذه المدارس شأنًا كبيرًا، خاصة في أوقات ضعف الحكومات العراقية.

فقد حصل في بعض السنين أن ينظِّم طلبة هذه المدارس مظاهرات يدورن فيها في الشوارع رافعين الأعلام الإيرانية، ومنادين بأفكار مذهبية، وكانت هذه المدارس تخضع لتوجيهات الملحق الثقافي الإيراني في السفارة.

ومن آثار هذه المدارس أن تخرَّج منها العديد من الإيرانيين، الذين اكتسبوا الجنسية العراقية فيها، فاستوطنوا العراق وأصبحوا حملة للأفكار الشعوبية، وأفكار الشيعة الغالية، بسبب التعليم الديني والمذهبي، الذي تلقوه في هذه المدارس التي لم تلتزم بالمنهج الوطني العراقي، ويجري تمويل هذه المدارس من قبل الحكومة الإيرانية، بالإضافة إلى تبرعات التجار من أصول إيرانية، وكذلك بما يجمع من أخماس وزكاة، حسبما يقضي مذهب الشيعة.

ولا يخفى أن هذه المدارس ومناهجها والقائمين عليها تحمل نوايا توسعية إيرانية، وبسط النفوذ، وتقويته في المنطقة العربية، وقد استخدمت إيران مع الأسف مذهب التشيع، والكثير من حملته إلى غايتها السياسية التوسعية، فتحالفت مع الكثير من القوى المذهبية والحزبية لهذا الغرض، وأمدتهم بالمال والرجال وحتى السلاح.

وهذا التأثير المتأخر تأريخيًّا يلقي الضوء على تأثيراته في العصور السابقة.

الفصل السابع

تحالفات الشيعة مع القوى الأخرى

تحالف اليهود الإيرانيون مع الشيعة ضد الأمة من خلال الأحزاب في العراق.

١. منذ تأسيس الحزب الشيوعي العراقي: انخرط فيه كثير من اليهود، وعراقيون شيعة من أصول إيرانية من هؤلاء (سلام عادل).
٢. الحزب الديموقراطي الكردستاني: وقد انخرط في هذا الحزب كثير من الأكراد من أصول إيرانية كان لهم أثر في إبعاد الشعب الكردي عن مؤازرة إخوانهم العرب، ومالوا إلى التوجهات الشيوعية.

استخدام الفرس والروم للشيعة لأغراضهم السياسية

منذ القديم كان الفرس يحاولون احتلال العراق واستيطانه كلما ضعف النفوذ العربي فيه إلى أن جاء الفتح الإسلامي فاكتسح النفوذ الفارسي، وأقام دولة الإسلام، ودخل أكثريتهم في الإسلام، ولكن بعضًا من الفرس الذين أغاظهم هذا الفتح، ولم يدخل الإسلام في قلوبهم، قام هؤلاء بالكيد للعرب وللمسلمين، عن طريق مشاركتهم في الحركات السرية الهدامة ضد الدولة الإسلامية، وقد بدأت هذه التوجهات منذ زمن الفتح الإسلامي، فقد عمل الهرمزان قائد الفرس المندحر على تدبير اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بواسطة (أبو لؤلؤة المجوسي)، كما ذكر أن قائد الفرس (زادويه) هو الذي قام بتحريض الخوارج على قتل الإمام علي رضي الله عنه في مسجد الكوفة على يد عبدالرحمن بن ملجم.

ولم تنته مؤامرات المجوس، فقد شاركوا في كثير من الحركات والعصيان الذي تم في الدولة الأموية، ولكن يتضح دورهم القبيح بما قام به أبو مسلم الخراساني في الثورة ضد الأمويين متسترًا بدعوته للعلويين والعباسيين في خراسان، وقد حاول أبو مسلم الخراساني الانفصال عن الدولة العباسية لإقامة دولة فارسية، فقام هو وجماعته باغتيال القادة

العرب في خراسان، منهم سليمان بن كثير الخُزاعي، وعلي بن جديع الأزدي، بالرغم من أن هؤلاء كانوا يمثلون الثورة العباسية، وقد دفعت الحال بالخليفة المنصور إلى أن يسير جيشًا إلى خراسان، وقَتل أبي مسلم الخراساني، وبعد مقتله حدث رد فعل المجوس، والادعاء بأنه لم يمت، وأنه سيرجع للانتقام، وبشرت بهذه الدعوة حركات مجوسية ثارت ضد الدولة العباسية، منهم المقنع وسنباذ وإسحاق الترك، وبقية قادة الحركات الهدامة، التي سبق الحديث عنها، وتوسعت هذه الادعاءات إلى درجة القول بألوهية أبي مسلم، ونسبوا له المعجزات، إلى أن سميت هذه الحركة بالمسلمية، نسبة إلى إبي مسلم الخراساني، وكان من ادعاءاتها الانتصار لآل البيت؛ فاصطبغت دعوتهم بالتشيع، وتستروا بالإسلام ظاهرًا، وقد فصل مؤرخو الفرق: كالنوبختي والبغدادي والشهرستاني مقالاتهم، وبالرغم من أن البرامكة قد أدوا خدمات جلية للدولة العباسية، إلا أن في نهاية الأمر تكشف للخليفة العباسي أمرهم، فقد كانوا يتحالفون سرًّا مع المجوس الفرس من جهة، ومع الشيعة والعلويين من جهة أخرى ضد الخلافة العباسية، مما دفع الخليفة إلى محاكمتهم ونكبتهم.

ونجح الفرس في غزو العراق ودخول بغداد على يد معز الدولة البويهي، القادم بجيشه من بلاد الديلم في إيران، فكانت الدولة البويهية تحمل العقيدة الشيعية، حيث أخضعت إيران والعراق للتشيّع.

فتحالف الشيعة مع الأسف مع تلك العناصر الفارسية المجوسية، فانتشرت عقيدة التشيع في القرن الرابع الهجري في البلاد العربية، حاملة معها جذور المجوسية الفارسية القديمة.

كما تحالف الشيعة بقيادة ابن العلقمي وزير الخليفة العباسي مع الغزاة التتار القادمين إلى بغداد بقيادة هولاكو، وبتحريض ومساعدة من العالم الشيعي نصير الدين الطوسي المشهور بالخواجة، والذي رافق هولاكو وسهل له الاتصال بابن العلقمي. حيث ذكر أن ابن العلقمي قد راسل هولاكو، وعرض عليه المساعدة في فتح بغداد للتتار، فكانت أكبر مأساة للعرب والمسلمين، حيث أعمل التتار القتل بأهل العراق بسبب هذه الخيانة، كما تحالف الشيعة مع الأسف مع الغزاة الصفويين للعراق في عهد الشاه إسماعيل الصفوي عام ١٥٠٨ـ ١٥٣٤ميلادية.

ويلاحظ المؤرخ أن الدولة العثمانية كلما انشغلت في حروبها بأوروبا، وضعف حكمها للعراق يقوم الصفويون بغزو العراق، ونشر التشيع، وقد وجدوا من بعض الشيعة آذانًا صاغية، فتحالفوا مع هذا العنصر الإيراني ضد إخوانهم العرب، وعلى طول الزمن تتكرر الساحة العراقية للنفوذ الفارسي، فينتعش بذلك التشيع ويضطهد أكثرية السكان مخالفي الشيعة. حصل هذا عدة مرات، منها في عهد نادر شاه عام ١٧٣٢- ١٧٤٧ ميلادية.

وتعد حركة البابية والبهائية امتدادًا للحركات المجوسية القديمة، من ادعاء الألوهية والحلول والتناسخ، فتأثر كثير من الإيرانيين والشيعة العراقيين بهذه الحركة، حيث أوجدت لها مركزًا في العراق، التقت فيه مع الأفكار اليهودية التوراتية، كما شهد بذلك المستشرق المجري اليهودي جولد تزيهر، وانخرط في هذه الحركة الهدامة كثير من الماسونية، وسخّروها لأغراضهم، كما دخل فيها أيضًا كثير من يهود إيران والعراق، حيث التقوا على الأهداف المطلوبة نفسها ضد العرب والإسلام عمومًا.

كما نشير إلى تحالف كثير من علماء الشيعة، وخاصة في إيران مع الحركة الماسونية، وذلك من خلال محفل (يقظة إيران) وذلك سنة ١٩١٤م، وقد فضح مؤلف كتاب الماسونية في إيران (محمد حسين ميمندع) كثيرًا من شيوخ وعلماء شيعة إيرانيين وعرب في العراق ولبنان، ممن انخرطوا في الماسونية، وفي العراق -أيام الانتداب البريطاني واحتلال العراق- عمدت السلطات البريطانية إلى تقريب اليهود والإيرانيين في المناصب وتهيئة الظروف المادية لهم، وهذه صورة متأخرة في العصر الحديث من تحالف اليهود الإيراني الشيعي.

واستخدمت الماسونية وأعداء الإسلام وأولئك الشيوخ المنخرطون في هذا المجال إلى إثارة النعرات الطائفية، وتنفيذ أغراض أعداء الإسلام، ودائمًا يمثل بعض علماء الشيعة في النجف وكربلاء في سوريا وفي لبنان التحالف مع النفوذ الإيراني، وتستخدم إيران دعوة التشيع لآل البيت مدخلًا لنفوذها في هذه المناطق، ونشيد هنا بأن كثيرًا من علماء شيعة العراق ولبنان والشام، قد خرجوا عن هذه السياسة، بل تحالفوا سرًّا سياسيًّا مع إخوانهم العرب ضد النفوذ الإيراني.

موقف الشيعة واليهود والنصارى من حكم المغول

بعد استقرار الأمر لهولاكو في بغداد استقدم من الموصل سعد الدولة الذي كان يتقن اللغة المغولية، وصار له نفوذ ببغداد، فأضحى هو الحاكم، وكان ذَا ميول شيعية، فقد زار ضريح موسى بن جعفر، ووزع الهبات على الشيعة الذين حوله، وذلك سنة ٦٨٨هـ، والمهم في الأمر أن في عهده ليس فقط المغول وحدهم قد علا شأنهم، وإنما ارتفع شأن اليهود والنصارى في العراق وخاصة ببغداد، وذلك بتعضيد من سعد الدولة، مما أثار حفيظة الناس عليه، فثاروا عليه وقتلوه بعد سنين، كما نُقم الناس على سعد الدولة في عهده سنة ٦٨٣هـ. وقد شجع عز الدولة ابن كمونة اليهودي بتأليف كتاب في النبوات[١]. الذي احتوى على أفكار أغضبت عموم الناس، وفي عهد الحاكم المغولي غازان استوزر فضل الله رشيد الدين، الذي كان يهوديًّا سابقًا، وذلك سنة ٦٩٣هـ، فكان موهوبًا بمعرفة الطب واللغة، مثل سعد الدولة وابن كمونة اليهودي، وقد استخدمه اليهود بشكلٍ واسع، وقد اهتم الأمير غازان بأمور العلويين والشيعة عمومًا، فقام بتعيين حكام على العراق من العلويين، وقد زار غازان العراق عدة مرات، كان يزور فيها المشاهد الشيعية في النجف وكربلاء والحلة، في عهد االحكم المغولي لإيران والعراق، وانتعش التشيع وكثرت الأوقاف على المدارس الشيعية وعلى العلويين، وقد انتعش التشيع في هذه الحقبة في العراق، وخاصة في الحلة، وفي هذه المدة كتب العالم الشيعي المعروف بابن المطهر الحلي كتبه المعروفة، خاصة كتابه المشهور بمنهاج الكرامة.

وعمومًا فقد وجد التشيع في المغول الحرية الواسعة في التأليف والنشاط الزائد، وساعدهم في ذلك توجه المغول وعلى رأسهم هولاكو في اتخاذ نصير الدين الطوسي وزيرًا له، فقد كان الطوسي من كبار علماء الشيعة وساساتها، وقد انقلب على الإسماعيلية، وتحالف مع هولاكو المغولي ليحقق نصرة المذهب الشيعي الاثني عشري، ومن مظاهر امتداد التحالف اليهودي الإيراني (المجوسي) في العصر الحديث ضد المصالح العربية ما يأتي:

(١) د. كامل مصطفى الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع، ط٢ (٢/٧١- ٨٩)، وما بعدها.

١. عمدت إسرائيل إلى ضرب المفاعل النووي العراقي.
٢. تحالف اليهود (إسرائيل) وإيران في الحرب ضد العراق مدة ما يقرب من ٨ سنوات، وذلك من أجل تعطيل تقدم العراق.
٣. اعتراف رافسنجاني بأن إيران قد تسلمت أسلحة ومعدات بلغت قيمتها أكثر من أربع مئة مليون دولار من إسرائيل.
٤. تحطم الطائرة الأرجنتينية في ١٨ تموز ١٩٨١م في الأجواء السوفيتية في أثناء قيامها بنقل أسلحة من تل أبيب إلى طهران.
٥. غزو إيران للعراق بتاريخ ١٩٩١-١٩٩٢م معتمدًا على مجموعة من الأحزاب الشيعية الموالية لها، وفشل هذا الغزو، وهو ما سمي (بحركة الغوغاء).
٦. تحالف إيران المجوسية مع أمريكا في ضرب أفغانستان ومشاركة الشيعة الأفغان الموجودين على الحدود الإيرانية بمساعدة أمريكا في حربها.
٧. ترحيب إيران وتسهيلها لأمريكا لغزو العراق سنة ٢٠٠٣م، وفتوى المرجع الشيعي علي السيستاني إلى الشيعة بعدم مقاتلة الغزاة أو التعرض لهم، وفي المقابل قامت أمريكا بتسليم مقدرات العراق إلى إيران وإلى الشيعة، وقد تم هذا بمساعدة ومباركة من الصهيونية والمتحالفين معها من أكراد الشمال.
٨. تحالف إيران المجوسية مع شيعة العراق وبعض من شيعة لبنان في الحرب ضد الشعب السوري منتصرة للحكم الشيعي العلوي في دمشق.
٩. تحريض إيران للأقليات الشيعية في كل من البحرين والسعودية واليمن وبقية الأقطار العربية، للوقوف ضد الحكومات الشرعية، واستخدام إيران التشيع وسيلة لتوسيع نفوذها السياسي في المنطقة العربية[١].
١٠. تدخل إيران في اليمن، ومساعدتها للحوثيين بالسلاح والتدريب.

النصيرية المجوسية وعلاقتها بالنصرانية

سبق الحديث عن شخصية (محمد بن نصير الدين النميري) الفارسي الأصل، وقد سميت فرقة النصيرية باسمه لما تميزت به من أفكار مجوسية، مأخوذة عن المزدكية

(١) د. فاضل البراك: المدارس اليهودية والإيرانية في العراق، (ص ٩٦). فاروق عمر فوزي: أبو مسلم الخراساني، (ص ٤٢)، سنة ١٩٧٩م. أبو حامد الغزالي: فضائح الباطنية، (ص ٥٠)، وما بعدها. الخطيب البغدادي: الفرق بين الفرق، (ص ٢٧٠)، وما بعدها.

والمانوية، وقد شهد الأب لامانس على إشاعة النصيرية في الشام والمبادئ المجوسية، والمناداة بتحليل المحرمات من نساء وخلافه، قال عنهم: إنهم لا يصومون ولا يصلون ولا يتطهرون: كالمسلمين، ويتخذون الأعياد المجوسية لهم عادة، وفي حقبة الحروب الصليبة تأثر النصيريون في الشام بالنصارى وبالحملات الصليبية، والتقت أفكارهم الشيعية المتعلقة بألوهية الإمام علي ومعجزات الأئمة، بما يدعيه النصارى من صفة الألوهية للمسيح ابن مريم، وادعت النصيرية بفكرة التثليث، وهى (معنى، واسم، وباب) كما هو عند النصارى، وينتشر النصيريون على سواحل البحر الأبيض المتوسط في كل من سوريا وتركيا ولبنان، وقد كتب عنهم الدكتور عبدالرحمن بدوي في كتابه (تعاليم الديانة النصيرية).

كما تأثر النصيريون بأعياد النصارى، حيث يحتفلون بعيد الميلاد وغيره من الأعياد، ويتسمى كثير من النصيرية بأسماء النصارى: ك (يوحنا- ومتا)، وتشبه صلاتهم صلاة النصارى.

وقد تحالف النصيريون الشيعة مع الحملات الصليبية التي اجتاحت الشام، فكان أولها حصار الصليبيين لمدينة أنطاكية، فكان النصيريون في صفوف الصليبيين، وتمثلت خيانة النصيرية بقيام فيروز النصيري بتسليم أحد أبراج أنطاكية بالقيام بفتح الباب للصليبيين الذين دخلوا المدينة فأعملوا السيف بأهلها.

وقد عزز ابن تيمية حقيقة تحالف الشيعة النصيرية مع الصليبين ليس فقط في أنطاكية، بل على طول ثغور البحر الأبيض المتوسط[1]، وقد أوضح ابن تيمية خطورة استخدام النصيرية لحراسة ثغور المسلمين بعد ثبات خيانتهم.

وقد شهد المؤرخ النصراني فليب حتي بتحالف كثير من الفرق الباطنية مع الغزاة التتار، الذين وصلوا في غزوهم إلى بلاد الشام، ولم تكتف الشيعة النصيرية بتحريف عقائد الإسلام، بل تحالفت مع أعدائه، وكان هذا شأن جميع الحركات الباطنية التي

(١) ابن تيمية: فتاوى ابن تيمية، (٣٥/ ١٥٠- ١٥١).

استغلها أعداء الإسلام على طول التاريخ. واليوم نشاهد تحالف كثير من الشيعة النصيرية في الشام مع الشيعة الاثني عشرية القادمين من العراق وإيران في حرب الشام[١].

تأثر الشيعة النصيرية بالمجوسية والنصرانية

إن مؤسس مذهب النصيرية من الشيعة هو: محمد بن نصير النميري، وهو مولى من أصل فارسي، خلط مذهبه الإسلامي الذي دخل فيه بمذهب المجوسية؛ لأنها كانت ديانة أجداده وديانة المنطقة التي نشأ فيها، كما خلط مذهبه بعناصر من الديانة المسيحية، بسبب مؤثرات الموقع الجغرافي الذي نشأ فيه هذا المذهب، وهي سواحل البحر الأبيض المتوسط وجبالها، التي كانت قديمًا تحت النفوذ الروماني المسيحي، ومؤثرات الديانة المجوسية تتمثل في:

١. الأعياد المجوسية وهي:
   أ. عيد النيروز (عيد الربيع).
   ب. عيد المهرجان.
   ج. عيد السدق.
   د. عيد الشكر.
   هـ. عيد الفرودجان.
   و. عيد ركوب الكوسنج.
٢. التناسخ أو ما يسمونه التقمص[٢].
٣. استحلال المحارم: وقد تنبه المستشرق الأب لامانس، فأشار إلى هذه الحقيقة عند الشيعة من النصيرية، والواقع أنها من مؤثرات الديانة الفارسية المزدكية، حيث نادى مزدك باستحلال الزواج بالمحارم، وهذه الفكرة قد اعتنقها كثير من مذاهب الشيعة الغلاة المتأثرين بالمجوسية، وأما مظاهر تأثر الشيعة النصيرية بالمسيحية، فتتلخص في الآتي:

---

(١) عبدالرحمن بدوي: تعاليم الديانة النصيرية، (٢/٤٨٤).

(٢) المجلسي: البحار، (١٣/١٣٠)، (١٣/٢٣٧- ٢٤٤)، وما بعدها. و(١٤/٢١٢)، والكشي: رجال (ص ٢٢٥) (ص ٢٦٦)، النجاشي: رجال، (ص ٢٥٦).

obeikan.com

أ. يصل حد تقديس الإمام عند النصيرية بالألوهية، فهم يضفون على الإمام علي صفات الله سبحانه وتعالى، شأنهم شأن المسيحية في نظرها إلى المسيح.

ب. كما هو اعتقاد المسيحية بفكرة التثليث (الله- عيسى- مريم) يعتقد النصيرية أيضًا بفكرة الأقانيم الثلاثة، وهي عندهم علي بن أبي طالب، ومحمد بن عبدالله، وسلمان الفارسي، ويرمز لهم في كتبهم (ع- م- س)، وعند بعض مذاهب الشيعة الغلاة يكون التثليث عندهم بـ (الله- علي- فاطمة)، أو يضع بعضهم اسم الحسين. وقد أحصى الدكتور عبدالرحمن بدوى كثيرًا من الأفكار المسيحية، التي تبنتها الشيعة النصيرية، منها: إقامة القداس، وتقديم القربان، ودعاء النور، وتقديس الخمر والكأس، وغيرها[١].

ج. إقامة عيد رأس السنة، كما يفعل المسيحيون، وعيد الصليب وعيد الغطاس وعيد السعف وعيد العنصرة وعيد القديسة بربارة وعيد الزيتونة وعيد مريم المجدلانية وعيد البشارة وعيد الفصح.

د. يسمون أولادهم بأسماء مسيحية، مثل: متى ويوحنا وهيلانة وكاترينا.

هـ. لا يصلون في مساجد المسلمين، وإنما في بيوتهم، أو إقامة صلاة جماعية في أحد البيوت تشابه في أقامتها القداس للمسيحيين[٢].

وقد نشر المؤلف يوسف إبراهيم الشيخ عيد ثلاثة نماذج من القداس الوعظي عندهم، وللشيعة النصيرية دور بارز في إعانة الصليبيين في حروبهم ضد المسلمين، وقد سبق الإشارة إلى ذلك، وسوف نفصل الأمر بما يأتي:

تحالف الشيعة الفاطمية مع الصليبين

قام الوزير الفاطمي في مصر والمدعو الأفضل بن بدر الجمالي بالاتصال بالصليبيين وتدبير المكايد ضد السلاجقة، الذين حاربوا الصليبيين، وكان غرضه اقتسام الشام مع

(١) د. عبدالقادر بن محمد عدا صوف: دراسات مهنية لبعض فرق الرافضة والباطنية، (ص ١٣٣)، وما بعدها، ط١، دار أضواء السلف، الرياض، ٢٠٠٥م.

(٢) يوسف إبراهيم الشيخ عيد: أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبين، (ص ٢٤٧-٢٥٣)، ط١، عمان، دار المعالي، ١٩٩٨م.

الصليبيين، وهذا الوضع دفع دولة المماليك بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي إلى قتالهم، وإزالة نفوذهم من مصر عام ٥٦٧هـ، ويذكر المؤرخ ابن تغري بردي في كتابه (النجوم الزاهرة ١٢٨/٥) أن الجيش الفاطمي بدل أن يهاجم الصليبيين في سواحل صور وما حولها قام بمهاجمة الجيش السلجوقي (السني) في صور، واستولى عليها، وفي النهاية تخلى الجيش الفاطمي عن صور إلى الصليبيين فاحتلوها سنة ٥١٨هـ[١].

وأمام تخاذل الخلافة الفاطمية ضد الصليبيين بدأ المصريون في التململ مما دفع بعض وزراء الخلافة الفاطمية وقوادها مثل صلاح الدين الأيوبي إلى التجهيز لقتال الصليبيين، ولكن في كل مرة يدبر لهم الاغتيال، حتى أدت حادثة هرب الوزير رضوان ابن الولخشمي الذي لجأ إلى عماد الدين زنكي في الشام، والذي جهز حملة ضد الفاطميين بمصر، وقام الفاطميّون بمراسلة الصليبيين والاستنجاد بهم ضد المماليك إلى أن استقر الأمر للمماليك بقيادة صلاح الدين، حيث أسقطوا الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ[٢].

الحشاشون النزارية

وهي حركة منسلخة عن الدولة الفاطمية بمصر، حيث قام ابن المستنصر بالله الفاطمي بمعاداة الدولة الفاطمية، وتأسيس دولة فاطمية أخرى في الإسكندرية سنة ٤٨٧هـ، ولكنه لم ينجح في مسعاه، وإنما نجح قائده حسن الصباح بالذهاب إلى إيران وتأسيس دولة الحشاشين الإسماعيلية الفاطمية على بحر قزوين وفي قلعة ألموت الحصينة، حيث نجح في بسط نفوذه والقضاء على النفوذ السلجوقي السني في المنطقة، وانتقل نفوذ الحشاشين إلى بلاد الشام أيام الحروب الصليبية، وقد دخلت هذه الفرقة بتعاليم سرية، وصنفت أتباعها حسب المراتب الآتية:

١. مرتبة شيخ الجبل.
٢. مرتبة كبار الدعاة.
٣. مرتبة الدعاة.

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، (١٨٢/٥).
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، (١٠/ ٥٨٩- ٥٩٠) و(١١/ ٢٩٩).

٤. مرتبة الرفاق.
٥. الفداوية أو الفدائيون.
٦. اللاصقون.
٧. المستجيبون.

واتبعوا حيلًا للدعوة لمذهبهم تتدرج بالمراحل الآتية، كما يقول الغزالي:

١. الرزق والتفرس.
٢. حيلة التأنيس.
٣. حيلة التشكيك.
٤. حيلة التعليق.
٥. حيلة الربطة.
٦. حيلة التدليس.
٧. حيلة التلبيس.
٨. حيلة الخلع والسلخ.

واستغل حسن الصباح فكرة كونه وكيلاً عن الإمام المستور، وأنه مبلغ الإمام المعصوم ومُؤول لنصوص القرآن ومعانيه، وانتهت دولة الحشاشين باكتساح جيوش التتار سنة ٦٥٤هـ[١].

ولكن أثر الحشاشين النزاريين استمر في الشام من سنة ٤٩٩هـ وذلك بقيادة الحكيم المنجم وأبي طاهر الصائد، واستعان بهم الملك رضوان في حلب لقتل مناوئيه وبسط نفوذه، فانتشر في الشام مذهب الباطنية، وأفسدوا على الناس عقيدتهم الإسلامية، واستولوا على كثير من قطاع الشام، واتخذوا أسلوب القتل والتنكيل بخصومهم منهجًا، وخاصة قتل قادة المسلمين السنة الذين نادوا بتوحيد الجهود ضد الحملات الصليبية، فكان هؤلاء عونًا للصليبين ضد المجاهدين، فقتلوا مثلاً والي الموصل في صلاة الجمعة في المسجد الجامع، كما غدروا بحاكم دمشق. وقد انتعشت الدعوة الإسماعيلية الباطنية في الشام على يد سنان راشد الدين، الذي ارتبط بأفكار الحشاشين، وذلك سنة ٥٥٨هـ، ونادى

(١) يوسف إبراهيم الشيخ عيد: أثر الحركات الباطنية، (ص٥٨-٦٣).

obeikan.com

سنان بفكرة تناسخ الأرواح[١]، كما تدعيها فرقة النصيرية المنتشرة في هذه المنطقة في ذلك الوقت، قد وصف الرحالة ابن جبير سنة ٥٨٠هـ هذه المنطقة، وما كان عليه الناس من تأليه سنان خاصة في مناطق جبل لبنان، كما حاول سنان اغتيال صلاح الدين بسبب تطهير الشام من الإسماعيلية والباطنية، حتى سحرهم وطوعهم للقتال ضد الصليبيين، واكتسحت بلاد الشام جيوش المغول، فضعفت الإسماعيلية الباطنية، وسقطت قلاع الشام بيد المغول إلى أن تقابلت جيوشهم مع جيش المماليك القادم من مصر، حيث دُحِرَ المغول في موقعة عين جالوت عن طريق قائد المماليك سيف الدين قطز، وذلك سنة ٦٥٨هـ[٢].

وتحولت الحركة الإسماعيلية الباطنية في الشام إلى فكرة سرية لأصحابها بعد اضمحلال قوتها السياسية، خاصة في جبال الشام وحصونها، ونريد أن نوضح للقارئ الكريم كيف أن المعتقدات المجوسية الفارسية القديمة انتقلت على يد الحشاشين النزارية من إيران على بحر قزوين إلى الشام على البحر الأبيض المتوسط، والتقت مع الأفكار النصيرية المشابهة لها، فاستوطنت سرًّا كثيرًا من مدن سواحل البحر الأبيض المتوسط والجبال والقلاع المحاذية لسواحل هذا البحر، ويمكن للقارئ الكريم أن يتقصى أثر هذه الحركات والأفكار الغالية التي عبرت على العرب والمسلمين من المجوس واليهود والنصارى، ففي سواحل تركيا مرسين وأنطاكية، وحيفا ويافا في فلسطين، وفي الشام في اللاذقية وبانياس وفي لبنان صيدا وصور وجبل عامل والبقاع، حيث يتضح للقارئ أن أثر تلك الأفكار قائم حتى اليوم يستخدم من قبل المصالح الأجنبية لإثارة الاقتتال بين العرب المسلمين أنفسهم، كما هو حاصل في سوريا اليوم.

وقد ارتبط نشاط حركة الحشاشين في الشام باليهود القاطنين بالمنطقة، فقد أصبح جزءًا من هذه الحركة، فقد ذكر الرحالة اليهودي بنيامين الذي زار الشام سنة ٥٦٩هـ أنه كان يقيم بين الإسماعيلية في الشام حوالي أربعة آلاف يهودي، يسكنون الجبال مثلهم

(١) أبو حامد الغزالي: فضائح الباطنية، (ص ٢١-٣٢).
(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق، (ص: ٢٩٨).

يرافقونهم في غزواتهم وحروبهم، وذكر أن هؤلاء اليهود أشداء، ويتبعون رأس الجالوت اليهودي ببغداد[١].

ونقل الكاتب يوسف إبراهيم الشيخ عيد أن كتاب الرسائل الباطنية الموجهة إلى ملك الصليبيين في بيت المقدس بشأن الانتقال معهم للزحف على مصر كان يهوديًّا[٢]، واعتمدت هذه الحركة الباطنية على اغتيال الزعماء والعلماء والوعاظ في كل من إيران والشام، كما هو مشهور عنها في التاريخ، ولا تزال مع الأسف هذه المنطقة تزخر بالحركات الباطنية السرية والاغتيالات التي تعتمد هذا الأسلوب.

وقد ذكر مؤلف كتاب أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين أن حوالي ٤٢ شخصية سياسية غالبًا من درجة الخليفة والوزراء فما دون اغتيلوا في هذه المدة القصيرة.

ويتبرأ علماء الشيعة الاثني عشرية من فرق النصيرية والحشاشين، وربما ما يسمون أيضًا بالعلويين في الشام، ولكن تأثير مقالاتهم وأفكارهم على التشيع الاثني عشري واضح، ليس فقط بتسرب أفكارهم إلى كتب الشيعة الاثني عشرية، بل تعداه إلى التحالفات السياسية والحروب العملية، كما هو حاصل اليوم ضد السنة في الشام والعراق، ولكن نشيد برأي بعض علماء الشيعة المخالفين لهذا الاتجاه، والذين سنعرض أسماءهم وأفكارهم في إصلاح التشيع في الباب الأخير من هذا الكتاب.

تحالف شيعة إيران وبعض الفرق الصوفية

وقع كثير من شيعة إيران تحت تأثير الحركات الصوفية التي ظهرت في العالم الإسلامي إبَّان القرن الخامس عشر الميلادي، وازداد هذا التوجه في القرون المتلاحقة، خاصة في العصر المغولي والصفوي لعوامل عدة:

أولها: أن أصول وقواعد الشيعة التي استعرضناها سابقًا أصبحت محل نقد شديد بشكلها الأصولي، الذي يحمله عادة علماء الشيعة ومجتهدوهم، والانخراط في الصوفية

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، (١/ ١٧٥)، ابن الأثير: الكامل، (١١/ ٣٤٦).

(٢) يوسف إبراهيم الشيخ عيد: أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبين، (ص ٣٠١).

يجنب الفرد شدة التقيد بالأصول من جهة، ويمنحه الراحة في الإيمان بالنسمات الروحية الغيبية، التي لا يختلف الشيعة والصوفيون حولها، على الرغم من أن علماء الشيعة منذ القديم قد ناصبوا التصوف العداء[١].

لكن التصوف والتشيع يلتقيان في منبع واحد، فكلاهما يقدسان الإمام عليًّا في صورة الزاهد في الدنيا وكرمه، ولما يدعون علمه بالأسرار الإلهية، ولما يشع له من نور ويقين انتقل منه إلى الأئمة المعروفين بعده، وتتناقل كل مصادر الشيعة ما يسمى بأصحاب الكساء، الذين بسط رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم كساءه، وهم علي وفاطمة والحسن والحسين. واتخذ ذلك علامة وإشارة إلى انتقال البركة والعلوم والأسرار اللدنية إليهم، وقد انتقل هذا التقليد عند أكثر الفرق الصوفية، حيث يبسط الشيخ صاحب الطريقة جبته أو كساءه على مريده علامةً على رضاه، وأنه أصبح جديرًا بأن يسر إليهم العلوم الباطنية، التي قد لا يحتملها من لم يصل إلى هذه الدرجة من (الكشف).

إن كثيرًا من سنة إيران وجدوا في التصوف ما يخفف عنهم الضغط المذهبي الذي كان يمارسه الشيعة الصفويون لإجبارهم على الدخول في مذهب التشيع، فحيدر أمولي من الشيعة (١٣٥٨م) من الصوفيين الإيرانيين المتأثرين بعقيدة الصفوي ابن عربي الأندلسي (ت١٢٤٠م) بالشام.

فأدخل بذلك في التشيع بعض آراء ابن عربي، وقد شهدت الحقبة الأولى اختلاط التصوف الشيعي بالسني، ليس على يد حيدر أمولي (١٣٥٨م) فقط، إنما أيضًا على يد نجم الدين كبري مؤسس الطريقة الكبروية الفارسية في القرن الثامن عشر، وكذلك محمد نور بقش (ت٨٦٩ هـ)، الذي ادعى انتقال التصوف وسماته من الإمام علي إلى الأئمة الاثني عشر، ثم ادعى أنه المهدي المنتظر، واستند بعض الصوفية الشيعية بحديث منسوب للإمام جعفر الصادق: «إن الله قد جعلنا أتباعه».

صوفية إيرانية محدثة

ذكر الأستاذ الفرنسي أيان ريشار في كتابه (الإسلام الشيعي) أنه دُعيَ إلى بيت الصوفيين

(١) أغلب علماء الشيعة الأصوليين ساروا في نهجهم ضد التصوف. انظر العلاقة بين التشيع والتصوف، لكامل الشيبي.

(خانقاه نعمة الله) وكان من الحاضرين في المجلس شاهبور بختريار (رئيس وزراء سابق بإيران)، ومذيعة راديو إيران منذ عهد الشاه، وزوجة أحد قواد الجيش الإيراني (في عهد الشاه)، وابنته التي تولت العزف على القيثار، وشاعر معروف من حزب توده الشيوعي، وأستاذ جامعي معروف أيضًا كما يقول، وفي القاعة شباب كثير تولوا خدمة الجميع، وبدأت الجلسة بالترديد الجماعي «لا إله إلا الله»، وبين مدة وأخرى يصيح الجميع «يا علي»، كما ذكر أن هناك تلاوات وطقوسًا لها بعض السرية لا يعرفها مثله من الأجانب أو لا يصرح بها هؤلاء، وقد ذكر أن هذه الطائفة المسماة (نعمة الله) بزعامة نور بقش تنشر مجلة (الصوفي) بالفارسية والإنجليزية، ولهم أربعة عشر مركزًا في أوروبا الغربية وأمريكا.

ولاحظ الكاتب سرعة انتشار هذه الطائفة، وتوسع مراكزها، وعزا ذلك إلى كثرة الإيرانيين في هذه البقاع واحتياجهم ربما إلى النفحات الروحية في بلاد الغرب.

ولقد ذكر أن الدكتور نور بقش كان طبيبًا نفسانيًّا ولد سنة ١٩٢٦م في كرمان، وكان مشرفًا على قسم الأمراض النفسية في جامعة طهران، ثم اتجه إلى أعمال التصوف، فكتب بعض المقالات والكتب وانتشرت أفكاره المبنية على آراء سابقيه من صوفية إيران، خاصة كتاب (أخبار العاشقين) لروزبهاري (من شيراز) وكتابات شاه نعمة الله أحد أولياء الصوفية في كرمان المتوفى سنة ١٤٣١م.

ويذكر الكاتب أن سلطات الثورة الإيرانية دعت الدكتور نور بقش إلى الرجوع إلى إيران، ولكنه يصر على البقاء في المنفى بالرغم من وجود الكثير من أتباعه في إيران نفسها.

ومن آرائه أنه يرى أن الصوفية للحب بين جميع البشر، ولكنه يهزأ بديانة بعض رجال الدين الشيعة، الذين يصفهم بالدجالين والنفعيين، الذين لا إدراك لهم للحياة الروحية للمسلم.

وقد أغلقت هذه الطائفة مركزها الصوفي طواعية بطهران، لعدم انسجامها مع التوجهات العامة لرجال الثورة الإيرانية حين ذاك.

لقد عملت التوجهات الصوفية في إيران خاصة منذ القديم على التقريب بين الشيعة والسنة، خاصة أولئك الذين لديهم تعلق شديد بالأئمة، وقد أشار الأستاذ الفرنسي موليه إلى هذه الحقيقة في دراسته عن فرقة الكبروية[1] التي ظهرت في القرن الثامن والتاسع الهجريين، ولكن مما أفشل هذا التوجه في إيران قيام الأسرة الصوفية بالاستيلاء على السلطة، وفرض تشيع قسري متزمت على الجميع مع أنهم في الأصل حركة صوفية (فرقة القزلباش) أي أصحاب التشيع المغالي جدًّا، مما جعل الأتراك الذين كانوا في صراع سياسي وحربي مع الصفويين يعلنون كفر القزلباش، وقد تمثل ذلك في فتوى قاضي القضاة في الدولة العثمانية الشيخ أبو السعود.

وهذا يفسر حقيقة الأسباب التي دفعت الصفويين إلى قمع الحركات الصوفية، وتبنيهم توجهات مذهب رجال الدين الإمامية الشيعية، وهذا التوجه عكسه محمد باقر المجلسي في كتابه (بحار الأنوار) الذي كتبه في ظل الدولة الصفوية وتحت توجهاتها السياسية ضد الصوفية وضد المذهب السني على السواء.

وقد انتعشت الحركة الصوفية في إيران بعد الصفويين شيئًا قليلاً خاصة في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، فكان من مظاهر الانتعاش حركة نعمة الله في كرمان، وذلك بفضل المعصوم علي شاه الآتي لإيران من الهند، وقد جابهت هذه الحركة معارضة من رجال الدين الإمامي خاصة هجوم الشيخ محمد علي بهبهائي (ت ١٨٠٣م) على هذه الحركة ومقتل زعيمها المعصوم، ثم جاءت حقبة انتعاش حينما تولى السلطة في إيران الأسرة القاجارية (١٧٧٩م- ١٩٢٥م)، فقد استخدموا الحركات الصوفية لإضعاف سلطة رجال الدين الإمامي المتشددين في أفكارهم وتطرفهم ضد خصومهم خاصة السنة، حيث كان القاجارية يهدفون الى ضم تأييد السنة لسلطانهم، وتوحيد الجميع تحت طاعتهم، ومثل هذا التوجه كان واضحًا في سيرة السلطان محمد شاه (١٨٣٤- ١٨٤٨م) الذي أضحى عنده الدراويش وأصحاب الخرافات بمنزلة سياسية، فاختار منهم الوزيرالأول نعمة الله الحاج ميرزا، حيث كان أستاذه ومربيه، فأحيا نفوذ الصوفية في البلاط الإيراني،

(١) نسبة إلى مؤسسها نجم الدين كبرى الذي ظهر قبل الصفويين بقليل، وقد أنتجت هذه الطريقة بعد مؤسسها رجلًا آخر، له أهمية في تاريخ الصفوية في إيران، وهو محمد نور بقش (٨٦٩هـ)، الذي ادعى أنه المهدي، وأنه الإمام المنتظر.

وضعف توجه رجال الدين من فقهاء الشيعة، وهكذا أصبحت حتى أيامنا هذه الحركة الصوفية مؤسسة معارضة في طبيعتها لتوجهات الفقهاء وعلماء الشيعة (الاثني عشرية)، والهدف نفسه فيما يبدو أنشأ الأمير القاجاري ظهر الدولة (ت ١٩٢٤م) جماعة الإخوة الصوفية، ولكن أصبحت محفلًا ماسونيًّا كما أراد لها ظهر الدولة، وقد بقيت إلى ما قبل الثورة الإيرانية ومقرها في شارع الفردوس في طهران، ويبدو أن الماسونية تلبست لبوس الدراويش والصوفية تحت غطاء هذه الحركة لتحقيق أغراضها[١].

ومن الحركات الصوفية في إيران الحديثة فرقة أوفيس التي نشأت في الخمسينيات بجهود الشيخ محمد الأنقى، ويبدو أن كثيرًا من أهل السنة في إيران منذ العهد الصفوي يهربون من غلو الشيعة الإمامية الديني نحو الحركات الصوفية التي قد يَرَوْن فيها مبررًا للتخفيف عما في نفوسهم من ضغوط نفسية ومذهبية أو اتخاذ التصوف مجرد ستار لنشاطهم الديني السني الذي لا يلاقي سوى القمع من سادة المذهب الاثني عشري في إيران.

وبعد الثورة الإيرانية أقدم النظام على غلق أماكن الفرق الصوفية في إيران، ومازلنا نرى أن علماء وفقهاء الثورة من رجال الدين الإمامية يفضلون الكلام عما يدعونه بالعرفان بدلًا من الكلام عن التصوف، ولا يزال هؤلاء يستعملون في أدبياتهم للهجوم على الصوفية ما كتبه كيوان القزويني المتوفى عام ١٩٣٩م، وقد كان صاحب طريقة صوفية مدةً طويلة، ولكنه انقلب على التصوف، فألف ما يقرب من عشرين كتابًا ضد الصوفية وأهلها، وكان نقده صادرًا من الداخل أي من داخل ما عرفه ودرسه في الحلقات الصوفية من تنظيم ومراسم وحيل، للتمويه على السذج وضعاف العقول.

ولقد صرح بعض فقهاء الإمامية المحدثين بصراحة أن الصوفية لا تمت إلى التشيع بصلة، وإنما صلتها بالبراهمة الهنود وعقائد الصابئة والنصارى، ودلل آغا محمد باقر الدواني بأن الصوفية الأوائل مثل الحسن البصري كانوا أعداء النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأما رؤساء الصوفية فيما بعد فقال عنهم: إنهم كلهم من السنة كمعروف

(١) أيان ريشار، مصدر سابق (ص ٨٨).

الكرخي وشقيق البلخي وأبي يزيد البسطامي ومنصور الحلاج، فلا صلة لهم كما يقول بأئمتنا، وقال: إن ما يدعون من وصولهم إلى مرتبة الحلول بذات الله، فإنما ذلك بتأثير تعاطي الحشيش والقنب الهندي[١].

التقاء شيعة إيران الإمامية مع الفلسفة

إن أغلب فقهاء الشيعة الإمامية في إيران يناصبون الفلسفة العداء، بوصفها فلسفة وافدة من خارج المفهوم الصحيح للإسلام، وأن أغلبها مستقاة أو متأثرة بالفلسفة الإغريقية مع بعض التعديلات، التي اقتضتها ضرورة المسايرة مع العقيدة الإسلامية، هذا بالرغم من كون أكثر فلاسفة الإسلام ينتمون إلى العنصر الإيراني أكثر منه إلى العنصر العربي، لكن التعميم السابق ليس على إطلاقه، حيث وجد كثير من فقهاء الإمامية في الفلسفة ما يسعفهم في تبرير عقائدهم وأفكارهم المذهبية، ولم يجدوا حرجًا في الاشتغال بالفلسفة من باب العلم والانتفاع، لا التقليد والاتباع.

ففي كثير من المدارس الدينية في قم ومشهد، بل في العراق أيضًا في النجف خاصة تدريس كتب أرسطو وابن سينا، ويستشهدون أو يقارنون بآراء فلاسفة إيران في العصور المتأخرة، مثل آراء الملا صدرا وغيره، خاصة في المباحث المتعلقة بالوجود ومعرفة الخالق سبحانه، وقد يستبدلون كلمة فلسفة بكلمة عرفان أو تأمل، ومع ذلك فإن المُلا صدرا -وهو من فلاسفة القرن الثاني عشر في إيران- لم يسلم من النقد وملاحظات الفقهاء، حتى اضطروه إلى ترك التعليم عشر سنوات كان فيها منعزلًا، وقد أضاف المُلا صدرا لمدرسته الفلسفية في إيران بعدًا جديدًا لتقريب الفلسفة من الفكر الإسلامي عمومًا والشيعي على الخصوص، وذلك بطريقته التوفيقية بين استلهام المعرفة الباطنية والمعرفة الظاهرية للنص، خاصة فيما يتصل بمباحث الإلهيات كوجود الخالق ومعرفته عن طريق النور الذي يقذف في القلب بدل المعرفة الفكرية الصرفة أو طريق الوحي (النص).

ولقد أوجد شهاب الدين يحيى السهروردي طريقة توفيقية بين الفكر السني والفكر الشيعي المنتشر في إيران في وقته بين الفلسفة الإشراقية التي جاء بها قبله ابن سينا،

(١) آغا محمد باقر الدواني: كتابه عن وحيد بهبهائي، (ص ١٩٤)، وانظر: أيان ريشار، مصدر سابق.

كما أدت طريقته التوفيقية هذه إلى التسامح في فهم عناصر الفكر الزرادشتي الضارب بجذوره في إيران، ولهذا فقد ضاق ذرعًا بآرائه أئمة الإسلام عمومًا، فنادوا بإعدامه بوصفه مارقًا عن تعاليم الدين، فأعدم في مدينة حلب بالشام سنة ١١٩١هـ زمن صلاح الدين الأيوبي[١].

ومن آرائه المتأثرة بالفلسفة عمومًا والفلسفة اليونانية (الشرقية) قوله: إن المعرفة الإشراقية وحدها هي مفتاح المعرفة، حيث إن الخيال الناشط يدرك عالم المثال المتوسط، والمنتقى بين إدراك عالم الظلمة (العالم المادي)، فالعالم الروحي النوراني يدرك بالبعد الباطني للوحي النبوي، ويدرك من خلاله معرفة القطب، وأنه من انقطاع النبوة بوفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فإن امتداد معرفة القطب لا تنتهي، وهذه الفكرة استعارها فقهاء الإمامية للاحتجاج بكون الإمامة تعد امتدادًا للنبوة، وإن كانت على درجة مختلفة، وأن الأئمة الاثني عشر هم أقطاب الأرض، وأن الأرض لا يمكن أن تخلو من إمام ظاهر أو باطن، وأن الإمام لو افتقد لساخت الأرض بهم يعرف الحق والخلق معًا.

ومن أهم من تأثر بالسهروردي من فلاسفة إيران في العصر الحديث هو المُلا صدرا الدين الشيرازي المشهور بالملا صدرا (ت١٦٤١هـ)، وأهم الأفكار التي تأثر بها نظرية المعرفة الحضورية القائلة: إنه كلما اشتد الحضور اشتد معه فعل الوجود، حتى لما بعد الموت، وقد كتب بهذا المعنى رحلات من العالم المخلوق نحو الله بهدف المحبة لله، وعودة إلى العالم المخلوق، ومعرفة النفس الإنسانية والاعتراف بأن ما من شيء يوجد غير الله، ثم يحاول المُلاءمة بين الفكر الشيعي الفقهي المتعلق بالبعث وبين وضع الجسد في عالم البرزخ، الذي هو جسد مثالي اكتسبته النفس من خلال وجودها على الأرض، وكثير من مفكري إيران قد تأثروا بآراء كل من السهروردي وملا صدرا، مثل هادي السبزواري (ت ١٨٧٨م)، ثم ظهر بعدهم أجيال من المفكرين الذين ينتمون إلى التفكير المادي أكثر منه إلى التفكير الإسلامي، وذلك تحت مؤثرات الفلسفة الغربية الحديثة.

(١) تم إعدامه في ظروف مأساوية. فقد كان الجو في الشام أيامها في حالة حرب مع الصليبيين، وكان الشيعة يتهمون بتقاعسهم بقتال الصليبيين، وربما اتهم بعضهم بموالاتهم، فبعد انتصار صلاح الدين أعدم الكثير ممن دارت حولهم الشبهات، أو ثبتت موالاتهم فكريًا أو تسامهم، ومنهم السهروردي.

وقد قام السيد دي غوبينو بترجمة كتاب ديكارت (جدال حول الطريقة) إلى اللغة الفارسية بمساعدة من أحد حاخامات همدان اليهود.

وبعد فتح باب الترجمة للكتب الفلسفية الماركسية والماسونية التي اطلع عليها رجال الدين في إيران، ودخلوا مع أفكارهم في سجال كما هو الشأن في بقية العالم الإسلامي، وبعض منهم تأثر أو قام بتقديم تلك الفلسفات بأشكال محايدة، أو قارن بينها وبين الفكر الشيعي المطروح حديثًا في إيران، ومن هؤلاء الشيخ محمد حسين الطبطبائي (ت١٩٨٢م)، الذي خَلفه الخميني سنة ١٩٥٠م على التدريس في قم، ونشر كثيرًا من المؤلفات التي قدم فيها فلسفة المُلا صدرا مقارنة بالفلسفات المادية أو الواقعية أو ذات المصادر الخارجية وغيرها، ويعد آية الله المرتضى من تلاميذه الطبطبائي والمتأثرين بكتاباته، وقد اغتيل سنة ١٩٧١م، وقد كان أستاذًا للفلسفة في كلية الشريعة بطهران، وقد اتهم أعداء الثورة الإيرانية باغتياله[1].

ومن المعاصرين الذين شغلوا بتحقيق وتقديم أعمال فلاسفة إيران الشيخ جلال الدين أشطباني، وكان أحد تلاميذه الخميني، ولكنه آثر العزلة العلمية في مشهد، وقد تعاون مع المستشرق الفرنسي هنري كوربان على ترجمة حياة كثير من فلاسفة شيعة إيران منذ القرن السابع حتى العصر الحديث.

وممن تأثر بالفلسفة الغربية من علماء الفلسفة الإيرانية السيد أحمد فردید المولود سنة (١٩٢٠م)، حيث أقام بفرنسا وألمانيا، وتأثر بفلسفة هيجل، لكن يبقي نزوعه إلى الفلسفة الإسلامية هو الأصل في تدريسه الفلسفة في جامعة طهران،كما يذكر اسم داريوش شايفان التأثر بفلسفة فرويد، والمقيم بفرنسا، وله كتاب: (ما عساها تكون ثورة إسلامية).

وقبل الثورة الإيرانية قامت الإمبراطورة فرح بهلوي وهنري كوربان سنة ١٩٧٥م برعاية إنشاء أكاديمية للدراسات الفلسفية الإيرانية، ولها منشورات بلغات عدة، واستمرت بعد الثورة، ولكن باتجاه إسلامي محض، ومن المجلات التي تعنى بالفكر الفلسفي عمومًا

(١) أيان ريشار: الإسلام الشيعي، (ص ٩٨).

والإسلامي على وجه الخصوص في إيران هي مجلة المعارف، التي يصدرها نصرة الله بوجانادى تطرق شتى الموضوعات الصوفية والفلسفية المقارنة[١].

الأصوليون والأخباريون

أدى الانفتاح الفكري للشيعة في العصر البويهي إلى ظهور تدوينات الشيعة وكتبهم على ملأ من المسلمين، واستطاع أن يقرأها العلماء بعد أن كانت كتبًا سرية يتداولها علماء الشيعة خفية، لما فيها من خروج على عموم عقائد المسلمين، ولكن تمتع الشيعة بحرية التأليف دفعت الكثير إلى جمع مدونات الحديث، كما رأينا سابقًا في مدونات كبيرة كالكتب الأربعة السالفة، مما مكن بقية علماء المسلمين إلى قراءتها ونقدها بعد أن كانت أفكار الشيعة يتداولها غالبية الناس شفاهية.

ولما في هذه الروايات من أخطاء وخروج على عقائد المسلمين، فقد أصبحت هدفًا للنقد والتمحيص منذ القرن الرابع الهجري، ولهذا نرى بوادر انقسام علماء الشيعة منذ ذلك الوقت إلى فريقين: فريق مصدق لما في هذه الروايات كليةً، ولا يستطيع ردها، وفريق حاول التمحيص وإعمال جزء من العقل، لتناقض هذه الروايات مع أحداث التاريخ أو مع العقل أو القرآن أو السنة، ومن الممكن أن نعد الكليني وابن بابويه القمي والمفيد من أوائل الموثقين لما في كتب الحديث عمومًا، ومن ثم يمكن أن يعدوا من أوائل الأخباريين، وفي حين نرى الطوسي والمرتضى وأخاه الشريف الرضي وغيرهم من أوائل الأصوليين، الذين ردوا كثيرًا من هذه الأخبار، ولم يثقوا بها، وإنما حاولوا أن يؤسسوا أصولاً مقبولة لدى عموم الشيعة الإمامية، ومن ذلك يمكن أن يعدوا من أوائل الأصوليين[٢]، وهذه البذرة اتسعت فيما بعد كثيرًا، لدرجة أنها دفعت كل فريق يوجه نقدًا لاذعًا إلى الآخر، فالأخباريون كما أوضحنا قد ورثوا كمًّا هائلًا من روايات اختلطت فيها عقائد ملل وفرق كثيرة من المسلمين وغيرهم من أصحاب البلاد المفتوحة، الذين خلقوا هذه الروايات حسب أهوائهم السياسية وأفكارهم السائدة في مجتمعهم قبل سيادة الإسلام وانتشاره في هذه الأصقاع،

(١) أيان ريشار: الإسلام الشيعي، (ص ١١٠).

(٢) الكشي: رجال، (ص ٢٢٥-٢٢٦)، النجاشي: رجال، (ص ٣٣٨)، المفيد: الإرشاد، (ص ٤١٣).

فالأخباريون عمومًا يوثقون الروايات الواردة في كتب الحديث، خاصة الواردة في الكتب الأربعة السابق ذكرها.

والعمل عندهم بالأخبار أولى من العمل بالاجتهاد المخالف لهذه الأخبار، وينكرون مقولة الأصوليين، الذين يأخذون بدليل العقل الذي ساد لدى الأصوليين الشيعة، واتسع العمل به فيما بعد.

ولهذا فليس للأخباريين اهتمام بعلم أصول الفقه؛ لعدم الحاجة إليه أمام النص المكتوب ولا بدليل الإجماع، ولهذا اتجه متأخرو الأخباريين إلى الانشغال مجددًا بجمع الحديث والتأليف والتوفيق بين الروايات المتناقضة، فأوغلوا في مزيد من التأويل، واستخدام فكرة التقية على دعوى أن الإمام قال الحديث في معرض التقية لوجود مخالف له في المجلس، وقد اتضح الهجوم على الأصوليين مما كتبه محمد أمين الاسترابادى (١٠٣٣هـ) في كتابه (لؤلؤ البحرين)، وهذا المنحى واضح لدى المتأخرين من الأخباريين: كالحر العاملي في كتابه (وسائل الشيعة) والكاشاني في كتابه (الوافي)، والنوري الطبرسي صاحب كتاب (مستدرك الوسائل).

ويمثل الأخباريون كارثة على الفكر الشيعي الإمامي، حيث أوقعوا المذهب في إشكالات لا حصر لها، سببت أكبر نقاط الإحراج للشيعة أمام بقية فرق المسلمين، ومن أمثلة ذلك تصديق الأخباريين الأحاديث المروية بنقص القرآن أو الزيادة فيه، كما عرضنا ذلك مفصلًا في كتابنا (جذور التشيع)، وركب بعض الأخباريين الشطط إلى درجة تكفير بعض الأصوليين من المجتهدين، أو أفتوا بعدم صحة الصلاة وراءهم.

وأرى أن تسمية الأصوليين من مذهب الشيعة الإمامية غير دقيق إذا ما عرضت على الوقائع التاريخية في نشأة الشيعة، ذلك أن إرجاع الإمامية إلى أصل عقيدة الإمام علي وأولاده وشيعته الأوائل، لا يتفق مع مقولات الأصوليين من ترسخ عقيدة الإمامة والتقية والبداء والرجعة، ولكونها مقولات أحدثها الشيعة فيما بينهم، بعد تطورهم التاريخي على مر العصور كما رأينا.

ويجب فهم الأصوليين بوصفهم فرقة من الإمامية، نسبة إلى آراء الأخباريين فقط من حيث إعمالهم للعقل نسبيًّا، ومن ثم فإن الأصوليين من الإمامية هم أكثر قربًا من الأخباريين لعقيدة عموم المسلمين، وأي تطور مستقبلي ربما يتم على أيديهم مخالفين بذلك الأخباريين. فإذا أخذنا مثلًا رأي الإخباريين في مسألة نقص القرآن والزيادة فيه، وتتبعنا بداية الرواية على يد الغلاة، ثم اتساعها على مر العصور، نجد أنها تصلح مثلًا واقعيًّا على كيفية نشأة أفكار الشيعة وتأصلها، كلما مر زمن أضاف إليها طائفة ما يعضدها من أكاذيب.

فمن أوائل الإشارات الواردة في نقص القرآن، ورد عن سليم بن قيس ثم عن هشام بن الحكم (١٩٠هـ) وأنه كان يقرأ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ آل عمران: ١٢٣، وأن هشام كان يرى أن القرآن الموجود هو من وضع عثمان رضي الله عنه، وأن القرآن الأصلي رفع إلى السماء[١].

ومعلوم من جميع مصادر الشيعة والسنة أن هشام بن الحكم أولع بالكلام، وله مقالات منحرفة في تجسيم الخالق، وقد شرب هذه المقالات من سيده أبي شاكر، حيث كان مولى له، وأبو شاكر هذا كان من الزنادقة المعروفين في التاريخ الإسلامي، وأنه كان من الديصانية المعتقدين بعقائد المجوس في النور والظلمة.

ثم اتسعت هذه المقالة في أحاديث أوردها الأشعري القمي في كتابه (تفسير القرآن) الذي نقل عنه الكليني هذه المقالة المنكرة، ثم اتسعت كما رأينا في مبحث القرآن فأصبحت ذريعة ضد مذهب الشيعة، وهكذا يبدأ الأمر من كذبة يستخدمها صاحبها للاحتجاج لمذهبه مرائيًا، ثم تصير قاعدة وأصلًا، يتناقله المتأخرون عن الأقدمين.

أورد الشيخ المفيد في كتابه (الإرشاد) رواية عن جابر الجعفي عن الإمام أبي جعفر قال: «إذا قام قائم آل محمد صلى الله عليه وسلم وآله ضرب فساطيط العرب، ويعلِّم

(١) البغدادي: تاريخ بغداد، (١٨١/٣)، وما بعدها، القرطبي: تفسير، (٨٢/١)، الشهرستاني: الملل، (١٨٤/١).

الناس القرآن على ما أنزل الله عز وجل، فأصعب ما يكون على من حفظه اليوم؛ لأنه يخالف فيه التأليف»[١].

وهذه دعوة مبطنة إلى عدم الانشغال في حفظ كتاب الله، وأنه أمر لا طائل من ورائه، وقد ورث التشيع هذا المبدأ مع الأسف، وأثر فيه أيما تأثير؛ فانظر إلى فداحة هذه النتيجة، وما تحتاجه من جهد جهيد لتصحيحها وتنقية كتب المذهب منها.

فالأخباريون يصلون إلى نتيجة مفادها «أن القول بصحة القرآن يفضي إلى الطعن في الأخبار»[٢]، وقد عد نعمة الله الجزائري هذه الأحاديث إلى أكثر من مئتي حديث، فأي ميراث أثقل من هذا على الشيعة، وكيف سيتم الخلاص منه؟

وعن مذهب الشيعة الإمامية ظهر في تاريخ المتأخرين مذهب الشيخية نسبة إلى الشيخ أحمد الأحسائي (١٧٤١-١٨٢٦م)، وقد جاء الشيخ أحمد الأحسائي إلى النجف، ثم زار إيران وسكن في مدينة يزد مدة اثنتي عشرة سنة حج خلالها إلى مكة. وفي مدينة قزوين التقى الشيخ المُلا محمدًا القزويني، وقد توفي في مدينة جدة في أثناء رحلته إلى الحج عن عمر ٧٥ سنة.

وقد تأثر في أثناء زيارته بحالة الشيعة الإمامية البيئية، وأن ليس لهم من هَم إلا انتظار الإمام الغائب؛ ليخلصهم مما هم فيه، وقد تأثر بمنهج الصوفية فكرًا وسيرة، وانصبت اهتماماته في دراسة الفلسفة وعلم الإلهيات. ومن آراء الشيخ أحمد الأحسائي:

١. أن الإنسان مؤلف من ذرات، هي عينها ذرات الأفلاك التسعة المكونة من العناصر الأربعة: (النار، الماء، التراب، الهواء)، والموت عنده يعني فناء هذه العناصر، إلا أن الجزء الخفي في الإنسان (الهواء) هو الذي سيظهر يوم القيامة. وعلى هذا الأساس ينكر الأحسائي معراج الرسول صلى الله عليه وسلم بالجسد، بل بالروح فقط.

(١) د. ناصر بن عبدالله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية- عرض ونقد، (ص ١١٤)، ط١، ١٩٩٣م جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٢) نعمة الله الجزائري: الأنوار النعمانية، (١/.....).

٢. أن للأئمة قوة خارقة، مستندًا للآية الكريمة ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المؤمنون: ١٤، بمعنى أن الله ليس هو الخالق الأوحد، وهو في هذا قد ساير ظاهر الأحاديث الواردة عندهم، خاصة ما رواه الغلاة التي منها رواية منسوبة للإمام علي: «أنا خالق السموات والأرض»، والأئمة هم السبب الأول في الوجود، فهم السبب الفاعل في الخلقة، وأنهم مظهر إرادة الله.

٣. العلم نوعان: ضروري ومخلوق؛ فالضروري لا علاقة له بالإمكانيات، والمخلوق يكون أبوابه الأئمة، ويرجعون في ذلك إلى حديث تتناقله كتب الشيعة عن الرسول صلى الله عليه وسلم: «أنا مدينة العلم، وعليٌّ بابها»[١].

ومن زعماء الشيخية البارزين السيد كاظم الرشتي (م ١٨٤٤م) نشأ في أردبيل، ورحل إلى يزد للدراسة على يد الشيخ الأحسائي فتأثر به، وقد أكثر التصانيف والشروح، وقد مرض في بغداد، وتوفي عن عمر خمسين سنة.

وقد ملَّ الشيخية هم الآخرون طول زمن ظهور الإمام الغائب، فتفتق ذهنهم الديني عن فكرة فلسفية، دفعتهم إلى الاعتقاد بالقول: إن الأئمة هم أبواب العلم كما نقلنا، فاعتقدوا أن زعيمهم الميرزا علي محمد الباب حقًّا هو قادر على الاتصال بالإمام الغائب، فلا حاجة لهذا الانتظار الطويل[٢].

وهكذا حلت فكرة الباب عندهم محل فكرة النيابة أو الوكالة التي أغلقها السفير الرابع كما ذكرنا.

وقد أوغلت البابية في التفاسير الباطنية، والتقت كثيرًا مع أفكار الشيعة الإسماعيلية في هذا الباب، ففسروا الجنة والنار والبعث والحساب على غير معناها الظاهر، ودعا

(١) أخرجه الطبراني في أكبر معاجمه (١١/٦٥ رقم١١٠٦١)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في أحاديث القصاص (ص٧٨): هذا ضعيف بل موضوع عند أهل المعرفة بالحديث، لكن قد رواه الترمذي وغيره، ومع هذا فهو كذب. وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٦/٥١٨-٥١٩ رقم٢٩٥٥): موضوع.

(٢) فتحي الزغبي: غلاة الشيعة، (ص ٢٦٠ -٦٢ -١٢٨-١٣٠).

البابية إلى أخوة البشر وتقارب الديانات، ولما كانت أفكار البابية تعد خروجًا عن تعاليم المذهب الشيعي الرسمي في إيران، فقد اضطهد البابية وزعيمهم الميرزا علي محمد سنة ١٨٥٠م، وهرب أتباع البابية إلى الخارج، فالتجأ بعضهم إلى أدرنة تحت حماية السلطان العثماني، فأظهر زعيم لهم يقال له بهاء الله (١٨١٧- ١٨٩٢م) عقيدة (الظهور الأتم)، حسبما تنبأ زعيمهم الأول الباب، وقد سموا هؤلاء بالبهائية.

وتنقل بهاء الله من بغداد إلى إسطنبول فأدرنة، حتى استقر به المقام في عكا، وفيها اقترب كثيرًا من الأفكار النصرانية الداعية إلى الأخوة الإنسانية. أما الذين ذهبوا إلى قبرص من البابية، فقد تزعمهم شخص آخر يسمى صبح أزل[١] [٢].

أثر الأخبارية والشيخية في إيران

سبق معالجة انقسام الشيعة الإمامية في العصور المتأخرة إلى أصولية وأخبارية وشيخية، ويعد الأصوليون هم أصل فرقة الشيعة الإمامية، وما الأخبارية أو الشيخية إلا ظواهر جديدة على التشيع الإمامي.

ويبدو أن هذا الانقسام له جذور قديمة، متعلقة بمدى الاعتماد وتوثيق الأخبار المروية في الأحاديث المنسوبة إلى الأئمة.

ففي الوقت الذي يتجه فيه الأخباريون إلى تصديق ما يروى في مطولات الحديث، خاصة تلك المتعلقة بأمور يصعب على العقل تصديقها، سواء تلك المتصلة خاصة بغيبة الإمام الثاني عشر أو غيرها من الأحاديث المتصلة بالأمور الفرعية التي ربما ليست من الدين بالضرورة، وفي الوقت نفسه فإن الأصوليين يعطون للعقل بعض الحكم على تلك المرويات، بحيث لا يصدقون كل ما يروى، بل يشددون على قبول ما في تلك الأخبار.

ولقد كان مذهب الأصوليين هو السائد فيما يبدو لدى الفقهاء، الذين يَرَوْن عدم جواز تقليد الميت، فكل عصر له مجتهد، والاجتهاد عندهم مفتوح لكل من توافرت فيه شروطه،

(١) البغدادي: تاريخ بغداد، (١٨١/٣)، وما بعدها، القرطبي: تفسير، (٨٢/١)، الشهرستاني: الملل، (١٨٤/١).
(٢) أيان ريشار: الإسلام الشيعي، مصدر سابق.

ومنذ العهد الصفوي كان الاتجاه الأصولي هو السائد في الدولة الإيرانية، وفي هذه الحقبة تعرض التشيع ومبادئه وأخباره إلى نقد شديد من جانب مخالفي الشيعة، خاصة ذلك النقد المعزز بسلطان الدولة العثمانية، التي كان يهمها كثيرًا إضعاف خصومها السياسيين (الصفويين خاصة)، الذين ما فتئوا ينقضون على أطراف الدولة العثمانية مثل احتلالهم للعراق كلما وجدوا الفرصة مؤاتية لهم خاصة في أثناء انشغال الدولة العثمانية في حروبها مع أوروبا وروسيا.

وفي هذه الحقبة زاد التوجه نحو الأخباريين خاصة من قبل الحوزات الدينية في النجف، وهو اتجاه تعزز ربما بانسحاب الشيعة شيئًا ما من المسرح السياسي ضد الدولة العثمانية بعد انهيار الصفويين خاصة.

وفي إيران قام الشيخ محمد الباقر بهبهاني (ت ١٧٩٣م) بحملة عنيفة ضد الأخباريين، مما أدى لاضطهادهم في إيران على يد سلطان القاجار فتح علي شاه.

أما اليوم فيسود إيران مذهب الأصوليين، وأضحى الأخباريون قلة، ربما يوجد بعضهم في جنوب غربي إيران حول عبادان.

أما مذهب أو فرقة الشيخية المنسوبة إلى الشيخ أحمد الأحسائي الذي ولد في البحرين (ت ١٨٢٦م) وشب في الأحساء من أسرة عربية الأصل، فيبدو أنه اتجه في فهمه للتشيّع وأصوله اتجاهًا لا يخلو من الباطنية الصوفية، التي تبتعد عن الفهم الحرفي الظاهري للنص، وهو من المتأثرين بأفكار المُلا صدرا السابقة، فكان يؤمن بوجود عالم متوسط يقع بين العالم المادي والعالم الروحي.

وهو ينفي أن يكون البعث في الأجساد، كما نفى أن يكون معراج النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماء بالجسد، كما سبق الإرشاد إلى ذلك أنه يرى أن الإمام الثاني عشر اختفى في العالم المتوسط فقط، بمعنى ليس بالضرورة تصديق عقيدة الإمام الثاني عشر غيبة مادية في جسده الحقيقي.

وينفي الشيخ أحمد الأحسائي ما يراه الأصوليون من تقسيم الشيعة إلى مقلدين ومجتهدين، بل إن لكل شيعي المقدرة على فهم إيمانه الداخلي دونما حاجة إلى أحد، أي بمعنى عدم ضرورة وجود مجتهدين (أصوليين) لهداية الناس إلى الحق، فالحق واضح في قلب المؤمن.

ولقد انتشرت الشيخية في كرمان، وتعزز وجودها في عهد الشيخ محمد خان الكرماني (ت١٨٧٠م)، وهو ابن الأمير القاجاري إبراهيم خان قاجار حاكم مدينة كرمان، وقد تأسست في كرمان المدرسة الإبراهيمية المنسوبة إليه، وهي تدرس التعاليم الشيخية الشيعية، وفيها تم طبع كثير من مصادر الشيخية بالعربية والفارسية[١].

وقد انتقد الشيخية أفكار الأصوليين من الشيعة المتعلقة بضرورة وجود نخبة من العلماء المجتهدين الذين تقع عليهم مسؤولية المطالبة، فقد عد الشيخية هذا من الانحراف عن مبادئ التشيع القديمة المؤسسة على كون السلطة هي للإمام الغائب وحده، وأن الشيعة في مدة الغيبة هم في مجرد انتظار لا يجب عليهم إقامة سلطة دنيوية، حيث إن في كل زمن يوجد إمام واحد يتكلم باسم الله وباسم محمد صلى الله عليه وسلم، وأسموا ذلك بـ (وحدة الناطق) وهذه الصفة لا تتحقق إلا (للشيعة الكاملين) زمن احتجاب الإمام، وهؤلاء الكاملون هم الشيخية، فهم نواب الإمام الغائب أو بابه.

رحل الشيخ أحمد الأحسائي إلى إيران زمن حكم فتح علي شاه القاجاري، وقد أكرمه وأغدق عليه من عطاياه، ذلك أن الشاه هذا كان في حاجة ماسة إلى أفكار هذا الشيخ؛ لمجابهة التيار الأصولي الشيعي في إيران، فأفكار الشيخ التي سبق إيرادها تدع للشاه مجالاً سياسيًّا أرحب بعيدًا عن تدخل المجتهدين الشيعة في السلطة؛ ولذا فقد اتسع مذهب الشيخية في إيران والعراق زمن حكم القاجار، لكن بعد ضعف الحكم القاجاري في إيران ضعفت الشيخية، وتطورت أفكارها إلى انحرافات على يد البابية والبهائية، وقد استمر الأصوليون من الشيعة في نقد الشيخية وأفكارها السالفة، لكنها بقيت في إيران

(١) أيان ريشار: الإسلام الشيعي، مصدر سابق.

ضعيفة الاتجاه، يعزز وجودها سلطة الدولة إلى الحد الذي تستفيد منهم الدولة في توجهاتها السياسية.

لكن بعد الثورة الإيرانية المعززة بالاتجاه الأصولي لا نرى للشيخية حضورًا فكريًّا وعقديًّا، وقد ذكر أن في كرمان رئيسهم الروحي سركار آغا أبو الرضا خان إبراهيم، الذي يصف نفسه بأنه كان مهندسًا زراعيًّا قبل أن يكون رجل دين، وهو كما يذكر لا يأخذ من جماعته الشيخية زكاة الخمس المعروفة بالمذهب الشيعي الأصولي، التي تقدم عادة للمجتهدين. ويصر الشيخية على وجوب أن يعيش العلماء من كسب أيديهم، هذا وقد اغتيل سركار آغا (سنة ١٩٧٩م)، فرحل خليفته السيد البصري من كرمان الى البصرة في العراق، حيث كان للشيخية وجود قديم في هذه المدينة[١] [٢] [٣].

تحالفات إيرانية

خلف طهماسب ابنه الشاه عباس الكبير (١٥٨٧- ١٦٢٩م) الذي انشغل بحرب أهلية ضد إخوانه المطالبين بالعرش، فانتهز العثمانيون الفرصة، واستولوا على تبريز وداغستان سنة (١٥٨٩-١٥٩٠م) فعقد صلحًا مع العثمانيين معاهدة فرهاد باشا سنة (١٥٩٠م) تنازل فيها الفرس عن تبريز وسيروان وعن جورجيا ولوستان، وألا يقوم بما من شأنه استفزاز عقيدة أهل السنة من شتم الصحابة خاصة، لكنه ما إن حس ضعفًا في الأتراك حتى استرجع تبريز ١٦٠٣م. واريفان وشيروان وقّاص ثم اتجه إلى العراق عند تمرد بكر صموباشي على السلطة العثمانية الضعيفة، ثم إلى البصرة التي كانت تحت حكم افراسياب ١٦٢٥م، ولكن الجيش الفارسي لم يدخلها وعاد إلى فارس، فقام السلطان العثماني مراد الرابع بحملة كبرى على فارس، انتهت بمعاهدة ١٦٣٩م لتحديد الحدود، ولكن حاول الصفويون إدخال النفوذ الأجنبي إلى الخليج العربي بدءًا بالنفوذ البرتغالي، ثم بالنفوذ الإنجليزي كيدًا وإضعافًا للعثمانيين، وعقدوا مع الإنجليز حلفًا لتسهيل التجارة والسفن البحرية، وعلى الرغم من اتجاه الشاه عباس الكبير إلى التسامح مع الأوروبيين

(١) أيان ريشار: الإسلام الشيعي، مصدر سابق.

(٢) د. ناصر بن عبدالله بن علي القفاري: مصدر سابق، (ص ١١٦).

(٣) يبدو أن الشيخية لم يقتنعوا بشكل جازم كبقية الإمامية باختفاء الإمام الثاني عشر على التفصيل.

النصارى، إلا أنه أظهر تعصبًا للمذهب الشيعي؛ فشجع الزيارة إلى مشهد بدل النجف وكربلاء، مستخدمًا العلماء الشيعة في تركيز التعاليم المهيبة، وكان يذهب بنفسه ماشيًا إلى زيارة قبر الإمام الرضا في مشهد بهدف اقتصادي، وقد رأينا بعض علماء الشيعة في عهده يسجلون أحاديث ينسبونها للأئمة، أو ربما وجدوا بعضها في كتب الأقدمين، تفيد أن زيارة قبر الإمام الرضا في مشهد تعادل حجة إلى مكة المكرمة، ومن أشهر علماء الشيعة في عهد عباس الكبير المحقق الأردبلي أحمد بن محمد المشهور بشفاعته للناس عند الشاه، وبما يَرَوْن من زهده وورعه، فكونت حوله قصص كرامات الأولياء، تقول واحدة فيها: إنه أدلى بدلوه في بئر النجف، فإذا بالدلو مليء بالذهب، فرده إلى البئر، وقال: يارب إن أحمد يريد ماء لا ذهبًا. وقد توفي سنة ١٥٨٥م.

ومنهم أيضًا محمد باقر الداماد، وأشهر كتبه (الصراط المستقيم) وأكثر تصانيفه في الفلسفة والتصوف، وقد توفي سنة ١٦٣١م، ومنهم أيضًا الشيخ محمد بهاء الدين العاملي صاحب كتاب (الجامع العباسي) في الفقه، وقد توفي سنة ١٦٢٢م في مشهد، ومن المشهورين أيضًا محمد مرتضى الماشي المشهور في المصادر الشيعية بالفيض الكاشاني؛ لأنه كثير التصانيف (ت ١٦٨٠م) ومير أبو القاسم الفندرسكي (١٦٤٠م) ومحمد تقي المجلسي (١٦٥٩م) وآخرهم محمد باقر المجلسي (١٦٩٩م) (١١١١هـ) له كتاب (بحار الأنوار) بالعربية، الذي جمع فيه تراث الشيعة الديني من شتات كتبهم القديمة خاصة، وترجم بعض الكتب إلى الفارسية، وله كتاب (حق اليقين) في الإمامة والغيبة، الذي قيل عنه: إنه كان سببًا لدخول سبعين ألف سني إيراني إلى التشيع، وفي كتابه (البحار) يتضح منحى المؤلف المتعصب ضد السنة، والمجاري للتشيّع الغالي، تحقيقًا لهدف الصفويين السياسيين ضد العثمانيين، وقد قام نادر شاه الصفوي (١٧٣٦م) في عهد السلطان العثماني محمود الأول (١٧٣٠م) بغزو العراق بجيش كبير، أغلبه من الفرس وفيه من الأفغان والتركستان، وقد وصف السيد عبدالله بن الحسين السويدي (١١٠٤هـ - ١١٧٤هـ) هذا الغزو في رسالة (مؤتمر النجف) فحاصر بغداد والبصرة ستة أشهر، ثم توجه إلى الشمال، وحاصر الموصل وأربيل، ثم رجع إلى بغداد وعسكر (بالكاظمية) حول قبر الجوادين (موسى ومحمد). وحصلت بينه وبين والي بغداد (أحمد باشا) مراسلة أقر فيها بصحة مذهب الشيعة، وأنه مذهب الإمام الصادق، ثم توجه إلى النجف.

ولغرض سياسي أراد الشاه نادر أن يقرب مذهبًا بين السنه والشيعة مدعيًا أن بين جيشه كثيرًا من السنة، ولا يحبذ اختلافهم، فعمد إلى عقد مؤتمر لعلماء السنة والشيعة، ليتناظروا فيه، ويقر ما هو صحيح، وقد مثل إيران سبعون عالمًا دون السويدي، منهم عشرون عالمًا في كتابه، كما حضره من الأفغان (عدة أصناف)، فكتب سبعة من علمائهم وعلماء ما وراء النهر دون سبعة من أسمائهم أيضًا، وكان نادر شاه قد طلب من أحمد باشا إرسال عالم ليحضر المؤتمر، ويكون حكمًا فأرسل والي بغداد العلامة السويدي لهذا الغرض، وفي الجدال أقر علماء الشيعة رفع السب عن الشيخين والصحابة، وأن المتعة حرام لا يفعلها إلا السفهاء، وألا يُنكَر معلوم من الدين بالضرورة، وانتهى المجلس بالمصافحة والرضا من الجميع، ثم كتب رقعة بما اتفق عليه الجميع، وختمت من قبل العلماء الحاضرين وشهود من علماء الكوفة، وفي يوم الجمعة تولى الخطبة عالم الشيعة الذي قرر ما اتفق عليه في المؤتمر وما تم تدوينه في الرقعة الطويلة وامتدح السلطان العثماني، ودعا له ثم مدح الشاه نادر بأقل من ذلك حسب وصية الشاه، وكان هذا المؤتمر في ٢٦ شوال ١١٥٦هـ[1].

(١) عبدالله السويدي: انظر تفاصيل ما دار في المؤتمر (مؤتمر النجف)، القاهرة ١٣٩٣هـ.

الفصل الثامن

صلة الصوفية بالشيعة الإمامية

مقدمة

إن الباحث في الفكر الصوفي والفكر الشيعي والإمامي يواجه السؤال الملح، وهو: أي من الفكرين أثر بالآخر، فهل التشيع أخذ من التصوف واستعار منه الأفكار، أم أن الصوفية على اختلاف مدارسها هي التي أخذت من الفكر الشيعي، واستعارت أفكارها ونظرياتها؟

والتفكير العميق يسوق الباحث إلى الرجوع إلى مصادر أفكار تلك الفرقتين، والذي عليه أكثر الباحثين: أن التصوف قد تأثر بأفكار الديانات القديمة: كفكرة وحدة الوجود والتناسخ، وكذا أخذ عن الديانة الفارسية، وخاصة الزرادشتية: فكرة النور والظلمة.

كما تأثر الفكر الصوفي بالديانة اليهودية في كثير من مقولاتها المتعلقة بالصفات الإلهية وفكرة التفويض، بمعنى أن الله يفوض لبعض الأولياء بعض قدراته سبحانه، وذلك على درجات من الغلو تصل إلى درجة التفويض لتدبير الكون، وكذلك أخذ الفكر الصوفي واستعار كثيرًا من الأفكار الموجودة في الديانة النصرانية، وخاصة تلك المتعلقة بوحدة الوجود وبطبيعة المسيح، الذي أضفى عليه بعض صفات الألوهية، وكذلك وقع الفكر الصوفي تحت مؤثرات الفلسفة اليونانية، خاصة الفكر الأرسطي.

وهذه أفكار كانت موجودة قبل الإسلام، وإذا رجعنا إلى الفكر الشيعي الإمامي نجده هو الآخر قد وقع تحت تأثيرات الفكر الهندي والفارسي (المجوسي واليهودي والنصراني) وكذلك الفكر الفلسفي اليوناني؛ فكلا المدرستين الصوفية والشيعة الإمامية قد شربا من منبع واحد، ووقعا تحت مؤثرات واحدة، ولكن الفرق بينهما قد يظهر في أسلوب إخراج الأفكار بما يتلاءم مع المنهج العام لكلٍّ منهما.

قد يبدو لبعض الباحثين أن الشيعة الإمامية هم الذين استعاروا بداية من الفكر الصوفي، وقد يؤيد هذا أن أوائل الشيعة كانوا ينكرون القول بمقولات الصوفية وينفونها عن أئمتهم، وهذه المدة اتسمت بتأثر الشيعة عمومًا بأفكار المعتزلة، ولم ينفتح الشيعة الإمامية في فكرهم ومؤلفاتهم على الفكر الصوفي، إلا بعد القرن الثالث الهجري.

ونحن في معرض الصِّلة بين التصوف والتشيع إنما نتوجه في بحثنا إلى الفرق الصوفية الغالية المنحرفة عن جادة الشريعة مثلها مثل الشيعة الغلاة، حيث إن غلاة الطرفين قد شربوا من منبع أجنبي واحد، سنستعرضه في بحثنا هذا.

إن بعض الصوفية الملتزمة بقواعد الشريعة والمقتصرة في منهجها على الزهد والرياضة النفسية في تحمل المشاق، التي تركز في تعاليمها على السمو الأخلاقي، واتصاف المسلم بحميد الصفات، فهو مسلك لا شائبة فيه، وهو خارج عن دائرة هذا البحث، فللكثير من الصوفية محامد ومواقف طيبة في التاريخ الفكري والسياسي، كذلك في الحفاظ على الثغور وحدود الدولة الإسلامية، حيث كان المرابطون يمارسون فريضة الجهاد في سبيل الله ومن الآية الكريمة ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ الأنفال: ٦٠، نشأت الأربطة، بل وسميت دولة بكاملها في المغرب بدولة المرابطين، وكذلك فعلت دولة الأغالبة، وقد اهتمت كثيرًا بإنشاء الأربطة على الساحل الإفريقي.

كما أن لبعض الصوفية محامد في انتشار الإسلام خاصة في إفريقيا، بل كان لبعض الحركات الصوفية جولات ضد الاستعمار الأجنبي، ومن أمثلة ذلك ثورة عمر المختار والثورة السنوسية، فقد كانت في الأصل مرتكزة على جهاد الأجنبي ومقاتلته، وكذلك الحركة المهدية في السودان التي هزمت الإنجليز، وكذلك ثورة عبدالقادر الجزائري على الفرنسيين.

وقد يبدو أن نشأة الصوفية في التاريخ الإسلامي أسبق من نشأة التشيع، ومن المحتمل أنهما نشأا في وقت متقارب وتحت ظل ظروف متشابهة، وعلى كل حال فمن الواضح أن الطرق الصوفية عمومًا والبكتاشية خاصة كانت الجسر الذي عبرت منه عناصر الديانات القديمة إلى التشيع، كما سنرى في هذا البحث.

صلة الصوفية بالشيعة الإمامية

إن أوائل شيوخ الشيعة الإمامية ينكرون صلتهم بالتصوف، ومن هؤلاء الشيخ محمد بن النعمان الشهير بالمفيد، فقد ذكر أن أصحاب التصوف من أتباع الإباحة والقول بالحلول أنهم ملاحدة وزنادقة، ويدَّعون للحلاج أباطيل، ويجرون في ذلك مجرى المجوس في ادعاء المعجزات، ومجرى النصارى في دعوى رهبانها تأويل النصوص البينات[١]، ويقال: إن الشيخ المفيد كتب رسالة في الرد على الحلاج ولكنها تعد مفقودة.

ومن الشيعة الإمامية الذين ردوا أقوال الصوفية، ورفضوا علاقتهم بها الشيخ الشهير بالمقدس الأردبلي (ت ٩٣٣هـ) في كتابه حديقة الشيعة، وأنكر غالبية أفكار الصوفية، خاصة فكرة وحدة الوجود وفكرة الحلول، ووصفهم بالكفر والزندقة.

كما أن الشيخ الحر العاملي كتب في الرد على الصوفية كتابًا مفصلًا، جمع فيه الكثير من الأحاديث الواردة عند الشيعة الإمامية في ذم الصوفية ورفضها، وقال فيه: إن الشيعة الإمامية والأئمة الاثني عشر مجمعون على ذم الصوفية، وليس من بينهم من كان صوفيًّا.

وبعد انتشار التصوف في إيران في عهد السلاجقة وأوائل عهد الصفويين نرى أن الشيخ محمد باقر المجلسي القادم إلى إيران من لبنان قد أغلظ القول ضد الصوفية في كتبه، التي جمعها في العهد الصفوي، وذلك أواخر القرن العاشر الهجري، وأفكاره هذه نرى بعضها مبثوثة في كتابه الطويل (بحار الأنوار)، وقيل: إنه هو الذي تسبب بطرد الصوفية من أصفهان، كما هاجم الشيخ يوسف البحراني بعض شيوخ الإمامية، الذين مالوا وأخذوا من أفكار الصوفية: كالملا صدرا والكاشاني، ومن المعاصرين الذين هاجموا منهج الصوفية وأفكارها الغالية، الشيخ محمد جواد مغنية، وفي إيران هاجم الشيخ المرعشي الصوفية، وقال: إن التصوف انتقل إلى مشايخ السنة، من أمثال الحسن البصري والزهري وطاوس والجنيد والشبلي ومعروف الكرخي، انتقل التصوف لبعض شيوخ الإمامية بسبب هؤلاء في رأيه.

---

(١) الشيخ المفيد: في الرد على الصوفية، وكتابنا مؤلفات الشيخ المفيد، ضمن تحقيق النكت في مقدمات الأصول، المنشور في مجلة كلية الآداب جامعة البصرة، سنة ١٩٧٨م.

ومجتهدو الشيعة الإمامية في العصر الحديث أكثرهم منكرين منهج الطرق الصوفية ونظريتها، وقال بعضهم بالتفريق بين تلك الأفكار الشاذة في الحلول والكشف وبين سلوك طريق الزهد والعرفان، وهو الطريق المقبول عند الأئمة في نظرهم، وهاجم محمد معروف الحسيني الدكتور الشيبي الذي كتب كتابه (الصِّلة بين التصوف والتشيع) وعارضه مخالفًا له فيما ذكره عن تأثر شيوخ الشيعة الإمامية بالفكر الصوفي.

وسلكت الباحثة أنعام قدوم مسلك الدكتور الشيبي بالقول: إن الصِّلة بين التشيع والتصوف صلة حقيقية موثقة بمسلك وكتب كثير من شيوخ الشيعة الإمامية، وذلك في كتابها (التشيع والتصوف لقاء أم اقتراب؟).

هل التصوف أخذ من التشيع أم العكس؟

يرى بعض الباحثين أن الصوفية هي التي أخذت من التشيع، خاصة فكرة الولاية، التي تركزت عند الشيعة في شخصية الإمام علي، الذي يعد المحور الأول في بناء المدارس الصوفية وإليه يرجعون، ومن هؤلاء ما نقله الحاج معصوم علي عن محمد بن أبي جمهور الأحسائي في المجلى: أن كميل بن زياد النخعي والحسن البصري وأويس القرني أخذوا (التصوف) عن علي رضي الله عنه، وأن شقيق البلخي أخذ (التصوف) عن الإمام الكاظم، وأن الشيخ أبا يزيد البسطامي أخذ عن جعفر الصادق، وأن الشيخ معروف الكرخي أخذ عن الإمام الرضى، وكذا فعل الشيخ السري، وأن الشيخ الجنيد أخذ عن السري[1].

التأويل الباطني

القرآن والوحي في نظر بعض رجال الدين من شيعة إيران المتأخرين يفهم على نحو تأويل المعاني، فعند نظر ملا صدرا الشيرازي أنه يتكون من شقين: الشق الأول هو كلمة الله سبحانه وتعالى التي نزلت، والمنتمين إلى عالم الأمر غير المكتوب ومكانها القلوب المؤمنة، ولا يبصرها إلا الذين أتاهم الله المعرفة، ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ العنكبوت: ٤٩، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ العنكبوت: ٤٣، أما الشق الثاني فهو

(١) مصطفى الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع، ط ١، (ص٣٧٥)، ١٩٦٣م، دار الأندلس، بغداد.

الكتاب المخلوق المنتمي إلى عالم الخلق، ومكانه اللوح المحفوظ، وما كتب عليه، وكل إنسان قادر عادة على إبصاره والنظر فيه، وهو كلام الله ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ الواقعة: ٧٩، ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ الواقعة: ٧٧ – ٧٨، ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ البروج: ٢١ – ٢٢.

أما بالنسبة إلى معاني القرآن الكريم، فهي عند أرشيف كاظم الرشتي معانٍ مرموزة من الحبيب إلى حبيب، وأن ما من أحد غيرهما يعرف المعنى الحقيقي لقصده سبحانه[١].

ويستتبع ذلك أن الوحي الإلهي يهدف إلى مستور باطني، (ما يدركه بعضه بالاستبصار والإيحاء والتأمل)، وهو مصدر النبوة والإمامة، حيث الإمام هو المالك لسر الوحي المحمدي المعبر عن الحقيقة المحمدية، التي هي مجمع الأئمة المعصومين الأربعة عشر[٢]، فهم موضع تجلي الحقيقة المحمدية المالكة لسر الوحي الظاهر والباطن معًا، فالعرض مثلاً في آية الكرسي، رمز لنشأة الكون المتعلق في الفلسفة الإشراقية بالعقل والروح والنفس والطبيعة.

والحقيقة المحمدية يرمز لها بالنور، المتمثل في ظهور العقل النبوي النازل بسلسلة الأكوان السبعة المتدرجة للعالم المادي وفعل الحقيقة المحمدية هو مبدأ جميع العقول، الذي يفيض بالأمر الإلهي، وهو مبدأ جميع الأرواح، وتتدرج مراتب الأكوان بدأ بعالم الأسرار (العالم الإلهي) أي عالم الأمر الفعلي، ثم يعده عالم الأنوار أو عالم العقول المحصنة، ثم عالم الأرواح وبعده يأتي عالم الأنفس، وأخيرًا عالم الأجسام المادية، التي هي أدنى المراتب.

وعند السيد كاظم الرشتي تقع تعاليم الأئمة كباعث للعرش وأنواره الأربعة، المتمثّلة للحقيقة المحمدية، وهي عبارة عن أربعة رؤساء من الأئمة لم يلزموا بالسجود لآدم؛ لأنهم هم الأنوار التي سجدت لها الملائكة[٣].

---

(١) وردت في تفسيره آية الكرسي.

(٢) الأربعة عشر المعصومون هم محمد صلى الله عليه وسلم وفاطمة وبقية الإثني عشر إمامًا.

(٣) يرى هنري كوربن بذلك اقترابًا من العرفان الإسماعيلي المتأثر ببعض الفلسفات اليهودية الخاصة، الأنوار الرمزية

ويقترب الشيخ أحمد الأحسائي من هذا التصور؛ فالوجود الأول عنده يتمثل في الأمر الإلهي، وهو نفسه الكتلة الأولية لنور الأنوار، المنبعث على شكل أربع عشرة شعلة تشكل جوهرًا متفردًا ذاتيًّا، وهو النور الذي خلق منه الأنبياء والأئمة من نفس إشعاعهم خلف روح المؤمنين، ويعزز ذلك بما نسبه للإمام علي من قوله بأنه من نور محمد صلى الله عليه وسلم، فإذن فالحسن من نور علي، وهكذا الأئمة جميعًا.

وخلال تلك العوالم التي أشرنا إليها أعلاه يتم تباعًا من خلالها تنزيل العقل النبوي بتجليات متتابعة، فبدأ بعالم الأسرار مصدر الفعل والأمر (كن فيكون) حيث العقل الأول الأمر بالحقيقة المحمدية، ومن العقل الأول صدرت المعرفة من الله إلى خلقه الممتزجة بروحه الأمرة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ الشورى: ٥٢، والقرآن عند آخر عبارة تلميح سري رمز (كتاب مرقوم) بين المحب والمحبوب، ولا أحد غيرهما يعرف الحقيقة من قصده، كما أن الأمر أكثر إبهامًا عند الآخرين، فقد وصفه بأنه «سر مغلف إلى الأبد بسر؛ فالوحي النبوي له باطن وظاهر، فالباطن هو باطن الحقيقة المحمدية الأولية، وهو مجمع الاثني عشر إمامًا، وهم مكان الرسالة النبوية، وأما الظاهر فإدراكه بالمعرفة، التي تفهمها كائنات عالم الأنفس، وهو مجرد معرفة القشرة الخارجية.

والظاهر والباطن نسبي في المعرفة حسب عالم الأكوان، فما تعد معرفته باطنًا في عالم من العوالم هو ظاهر في عالم أعلى منه درجة، أما معرفة الباطن المطلق فهو من اختصاص الأئمة الأربعة عشر وحدهم؛ فالقرآن على هذا باطنه وظاهره نزل من عالم الأسرار المحصنة، مرورًا بالعوالم المذكورة، إلى أن وصل إلى العالم الدنيوي وهو العالم المحسوس، ودورة النبوة قد بدأت بآدم ثم انتقلت من نبي إلى آخر، حتى وصلت إلى التجلي الكامل للنور المحمدي، حيث انتهت النبوة بخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن بدأت بعدها مباشرة (دورة الولاية)، أو دورة الإمامة المبتدئة بالإمام علي والمنتهية

الأربعة المتمثّلة في الملائكة الأربعة العليا، وهم إسرائيل وجبرائيل وعزرائيل وميكائيل. كتاب: في الإسلام الإيراني، ترجمة د قرقوط. حاشية رمز ١٦٣، وارجع أيضًا لما ذكرناه عن ادعاء اختلاف خلق طينة الشيعة عن الآخرين.

بالثاني عشر؛ فالقرآن في هذه الحقبة يكون هو الإمام الصامت والإمام (الشخص) هو القرآن المتكلم، وما حقيقة الكتب المنزلة على الأنبياء جميعًا إلا نسخ من القرآن.

والأئمة هم الأعرف بالمعنى الباطني للقرآن، وكونهم في تلك المرتبة العليا الموصوفة آنفًا، فيكون المعنى الباطن بالنسبة لنا هو نفسه المعنى الظاهر بالنسبة للأئمة المعصومين، وهذا يفسر عندهم ما نقل عن الأئمة قوله: «إن أمرنا صعب مستصعب..»[١]؛ ومن هذا المنطلق اتسع التأويل الباطني للقرآن الكريم لدى علماء شيعة إيران، وهذا منهج قد سبقهم فيه مفسرو العهد القديم من الرهبان عند اليهود، ومفسرو العهد الجديد من رجال الدين النصراني، وانتقل هذا المنهج أيضًا إلى كثير من علماء المسلمين ذوي الميول الصوفية خاصة والإسماعيلية من الشيعة.

وتأثر بعض الشيعة بنظرية وحدة الوجود والإنسان الكامل والنور المحمدي، ويعد ابن عربي من أوائل من أوضح نظرية تفرع الكلام عن نظرية الإنسان الكامل والنور المحمدي، فيذهب ابن عربي إلى أن الوجود جمع الممكن منه والواجب ما هو إلا حقيقة واحدة ليس فيها ثنائية ولا تعدد بالرغم من مخالفة حواسنا لذلك، فالخلق والخالق في رأيه يعبران عن حقيقة واحدة. والكثرة التي تشهدها الحواس ما هي إلا تعدد الصور ومجالاتها (الصفات)، وهي أوهام يخترعها العقل. وحيث إنه ليس في الوجود إلا الله، فيكون الله سبحانه وتعالى حق في ذاته، وخلق من حيث صفاته، وهذه الصفات هي نفسها عين الذات، وهذا ينتج عنه فكرة وحدة الوجود التي لا تدرك إلا بالتجلي للصوفي الفرد، حيث يعجز الحس والعقل عن الإدراك، وعن طريق الاتصال بالله وحده، يدرك الصوفي أن لا وجود حقيقي للأشياء، بل الوجود كله لله[٢].

ومن أوائل من أشار إلى فكرة الإنسان الكامل أبو منصور الحلاج (٣٠٩هـ - ٩٢٢م)، حيث ادعى الحلول والاتحاد، وتتلخص فكرته في أن الله سبحانه وتعالى «خلق آدم على صورته»؛ ففي آدم صورة إلهية، وهذا يعني عنده أن لابن آدم طبيعتين: إحداهما لاهوتية، والأخرى ناسوتية، ممتزجتان امتزاج الروح بالجسد، وهذا انزلاق في تأليه الإنسان،

(١) راجع ما سبق ذكره عن الحديث عند الشيعة وتأويل كلام الأئمة.

(٢) عرفان عبدالحميد: نشأة الفلسفة الصوفية وتصورها، (ص ٢٣٥).

سبقت النصرانية هؤلاء في الاحتجاج بأن عيسى عليه السلام ابن الله بصفته الإلهية، بالرغم مما يظهر لنا ناسوته (جسده).

ولقد أخذ ابن عربي فكرة الحلاج السالفة مع تعديل بسيط؛ لتتسق مع فكرة وحدة الوجود، ذلك أنه نادى باتحاد الطبيعة اللاهوتية للإنسان والطبيعة الناسوتية، بل إن هذه الوحدة متسقة ليس في الإنسان فقط، وإنما في جميع الموجودات والكون كله، والإنسان أفضل من جميع الموجودات، وبهذا أظهر ما أسماه بالإنسان الكامل (آدم)، والكمال هذا لا يصدق إلا على مرتبة الأنبياء والأولياء، وأكملهم وأتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن المقصود بمحمد هنا ليس فقط محمد المبعوث بناسوته، بل هو الحقيقة المحمدية، الذي هو المظهر الكامل للذات الإلهية[١].

والواقع أن فكرة النور المحمدي سبق أن ظهرت في الاعتقاد عند قدماء الشيعة من القرن الثاني الهجري الذين نسبوا إلى الإمام جعفر الصادق (ت ١٤٨هـ) قولاً للإمام علي عليه السلام بأن محمدًا أو أنه هو ومحمد خلقا من نور الله الأزلي، وأن الأشياء كلها خلقت من أجله، وأن الهداية فيه، والنور له، والإمامة لا تكون إلا في آل علي، وقد أشهد الله الخلائق على ذلك منذ الأزل، فلما خلق آدم جعله مستودع هذا النور، حيث انتقل إلى الأنبياء، ومنهم إلى محمد صلى الله عليه وسلم، ثم انتقل إلى الأئمة الأربعة عشر، فهم أنوار السماء والأرض، فيهم النجاة، وهم مكنون العلم، وإليهم مصير الأمور[٢].

وقد ذهب الحلاج إلى أن لمحمد صلى الله عليه وسلم حقيقتين: نورًا أزليًّا قديمًا، وجد قبل أن توجد الأكوان، وهو مصدر المعارف والعلوم. والثانية: كونه نبيًّا مرسلاً، ظهر في زمان ومكان معين معروف، فعلم الرسول صلى الله عليه وسلم استمده من ذلك النور الأزلي مثل بقية الأنبياء[٣].

(١) ابن عربي: الفتوحات المكية، (٩٧/٢).

(٢) المسعودي: مروج الذهب، (٣٢/١- ٣٣).

(٣) أبو منصور الحلاج: كتاب الطواسين، (ص١١)، ط ١٩١٣م. ابن عربي: الفتوحات المكية، (٤٣١/٤).

وأخذ ابن عربي الفكرة السابقة، وطورها بما أسماه النور المحمدي، ومفادها أن الله سبحانه لما خلق آدم من قبضة التراب مسح ظهره، فاستخرج من كان من أصحاب اليمين، ومن كان من أصحاب الشمال، ثم اعتصر من شجرة (كن) صفوة ما فيها، ثم ألقى عليها من نور هدايته، ثم غمسها في بحر الرحمة، ثم خلق منها نور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم زين بهذا النور الملأ الأعلى، فكان هذا النور أصل كل نور.

ثم شاعت فكرة النور المحمدي، وزيد فيها تفصيلات وانتقلت إلى بعض تفاسير القرآن الكريم، فقد قال بها أبو محمد سهل بن عبدالله التستري حينما فسر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الأعراف: ١٧٢، فقال: إن الذرية ثلاث: الأول محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله سبحانه لما أراد أن يخلق محمدًا صلى الله عليه وسلم أظهر من نوره نورًا، فلما بلغ حجاب العظمة سجد لله سجدة، فخلق الله من سجدته عمودًا عظيمًا، كالزجاج من النور باطنه وظاهره فيه عين محمد صلى الله عليه وسلم، قبل أن يخلق الله آدم، قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة: ٣٠، فخلق آدم من طينة العزة من نور محمد صلى الله عليه وسلم[1].

وقد شاعت فكرة النور المحمدي عند المذاهب الصوفية على شتى طرقهم وتأويلاتهم، وما سبق مقدمة لصلة الشيعة الإمامية بالتصوف، والتقاء الطرفين بموضوع التأويل الباطني، وسنفصل هذا الموضوع المهم فيما بعد.

الطرق الصوفية التي تأثرت بها الشيعة الإمامية

إن أهم الطرق الصوفية التي تأثر بها الفكر الشيعي الإمامي:

١. الطريقة الرفاعية

المنسوبة إلى الشيخ أحمد الرفاعي الفقيه الشافعي الأشعري الصوفي (٥١٢ - ٥٧٨هـ)، المولود في قرية حسن بالبطائح (والبطائح هي عدة قرى مجتمعة في وسط الماء بين واسط

(١) أبو محمد سهل بن عبدالله التستري: تفسير القرآن العظيم، (ص ١٤).

والبصرة)، وتعتقد هذه الطريقة بأن شيخها يمتلك بعض صفات الربوبية، التي منحه الله إياها: كتصريف الكون، وعلم الغيب، وإحياء الموتى، وامتلاك الجنة والنار، وبسبب انتساب شيخ الطائفة هذا إلى الإمام موسى الكاظم، وهو أحد أئمة الشيعة الإمامية، وإضافةً إلى ذلك فقد ادعى بعض الرفاعية أن شيخهم هو الإمام الثالث عشر، ويهتم الرفاعية أيضًا بكتاب الجفر الذي ينسبه الشيعة الإمامية إلى الإمام جعفر الصادق، ويدعي أن في الكتاب علومًا غيبية، ولا يعلم الباحثون إلى اليوم أين هذا الكتاب أو حقيقته، بالرغم من أن كثيرًا من الدعاوى تدور حوله، ويلتقي الرفاعية بالشيعة الإمامية بفكرة ظهور الإمام الثاني عشر المدعى به، كما يلتقون بما يسمى عندهم بالخلوة المحرمية، والتي يخلون في شهر محرم من كل سنة، فلا يقربون النساء، ولا يأكلون فيها إلا الطعام النباتي، وتنتشر الرفاعية في كثير من البلاد العربية والإسلامية.

٢. الطريقة البكتاشية

وهي المنسوبة إلى خنكار الحاج محمد بكتاش الخراساني النيسابوري المولود في نيسابور سنة ٦٤٦هـ، ويدعي هذا الشيخ انتسابه إلى الأئمة الاثني عشر عن طريق جده إبراهيم بن موسى الكاظم.

ورحل الشيخ إلى بلاد الأناضول، وفيها كون له مريدين، والتقى بالسلطان العثماني أورخان ثاني سلاطين آل عثمان، وبارك الشيخ جيش السلطان، وتوفي في مدينة قيرشهر سنة ٧٣٨هـ، وتعتقد البكتاشية بفكرة وحدة الوجود، وأن الله قد حل في جميع الموجودات، وتأثروا باحتفالهم بالعشاء الرباني المعروف بالنصرانية، ومن خصائصهم لبسهم العمامة من اثنتي عشرة خصلة، ترمز إما إلى الاثني عشر إمامًا أو إلى الخصال الاثني عشر التي يجب توافرها فيمن أراد اتباع هذه الطريقة.

ويركز البكتاشية في أدعيتهم بالدعاء إلى الأئمة الاثني عشر، ولا يترضى البكتاشية عن الصحابة، وتنتشر البكتاشية خاصة في تركيا في بلاد الأناضول، ويميلون للتصويت في الانتخابات إلى حزب الوحدة العلماني، الذي يناصره شيعة تركيا على اختلاف مذاهبهم، وهذا دليل كبير على التقاء التشيع بالتصوف.

علاقة الطريقة البكتاشية الصوفية بالتشيع الصفوي

مقدمة عن السلاجقة وانتشار التصوف في بلاد الأناضول وإيران

من المعلوم أن السلاجقة قد جاؤوا من بلاد التتار (غرغيزستان) إلى الأناضول، وتركز أمرهم في أول الأمر في قونية في بداية القرن الثامن الهجري، وكان السلاجقة قبل إسلامهم يعبدون قبور الأجداد، فكانوا يقيمون على تلك الأضرحة القبب، ويعمدون إلى تزيينها، والمبالغة في تحسين بنائها، ولما دخلوا الإسلام استمرت عندهم عادة بناء القبب على أضرحة الأولياء، وتبنوا في طريقة إسلامهم وطقوسهم الدينية المبادئ والأفكار الصوفية، التي تشكلت في بلاد الإسلام منذ انتشار الصوفية، وتأثرها بالمبادئ النصرانية والديانات الهندية القديمة، وخاصة فكرة وحدة الوجود، التي بنيت عليها فكرة الحلول القائلة: إن الله يحل في كل شيء- تعالى الله عن ذلك- وعلى يد ألب أرسلان السلجوقي الذي دخل قونية، وهو رابع حكام السلاجقة، واستقر له الحال بعد حروبه ضد الروم إلى السيطرة على بلاد الأناضول، وغزو المناطق النصرانية على البحر الأسود، ودخلوا مع المغول فيما بعد في صراع سياسي، والذي يهمنا في هذه المدة هو انتشار التصوف في بلاد تركيا والأناضول، وانتقاله فيما بعد إلى إيران.

وفي هذه المدة كان دخول الأتراك إلى الإسلام على يد الصوفية وعلى يد الشيخ الصوفي حاجي بكتاشي ولي (ت ٧١٦هـ) كون هذا الشيخ مزيجًا من الأفكار الصوفية والشيعية والنصرانية؛ لتغذية مريديه في زاويته المعروفة وهذا أول التقاء في هذه المنطقة بين التصوف والتشيع، فسادت بعد ذلك في بلاد الأناضول ما يسمى بالطريقة الصوفية البكتاشية، وكان من بعض نتائج هذه الحركة ظهور أورخان بيك ابن عثمان أرطغل واستيلاؤه على مدينة بورصة، ثم اتسع نفوذه وأصبح المؤسس الأول للدولة العثمانية، وكان عام ٧١١هـ، وقد كان مريدو البكتاشية من طلائع الجيش العثماني الأول.

ومن المعلوم أن شيخ البكتاشية بدر الدين قد درس العلوم الإلهية في بورصة ثم الشام ثم مصر، واستقر به الحال في مدينة الإسكندريون بين جماعة سموا بأهل الحق، وهم شيعة متطرفون يعتقدون بألوهية الإمام علي، وبدأ الشيخ بدر الدين وأتباعه في نشر دعوة الشيعة الغالية في العديد من المدن التركية والإيرانية، خاصة في تبريز، ولكن بعد اكتشاف

أمره أبعده السلطان العثماني، ونفي إلى مدينة أزنيك في غرب الأناضول، وقد كتب في منفاه كتابه الشهير (الواردات) وهو مزيج من أفكار صوفية ابن عربي وغلاة الشيعة، خاصة ما تعلق معها بالكرامات، التي انتشرت في النصرانية في هذه المنطقة، وتأثر بهذا الكتاب بعض تلامذته منهم (طورلاق كمال) و (نور كليجة مصطفى)، ومن أفكار الشيخ بدر الدين هو الغلو في محبة الإمام علي والاعتقاد بألوهيته، وأن المؤمن بهذا لا يحتاج إلى صلاة ولا إلى صيام، بل إن هذه العقيدة تطهره من اقترافه لجميع المحرمات والعياذ بالله. وهذا التقاء صريح وواضح بين التصوف والتشيع.

من أفكار الشيخ بدر الدين المنتسب إلى البكتاشية

يعتقد أن شيخ الطريقة الصوفية قد حل به الله، وأن ذاته معصومة وواجبة الوجود وواجبة الطاعة، وتدور جميع الكائنات في مدار طاعته، وأن له الولاية المطلقة على البشرية، وأسقط عن أتباعه الواجبات الشرعية: كالصلاة والصيام وما إليها على زعم أن من يحل به الخالق إنما يصل إلى واجب الوجود، فلا يحتاج إلى صلاة ولا صيام، واستحل هو ومريدوه المحرمات ما جلب إليه خلقًا كثيرًا، لا يلزمهم إلا بطاعته العمياء، وهذه الحركة الصوفية المنحرفة، قد تأثر بها الصوفية في إيران، فأصيب أتباع المذهب بالخذلان، واستخدموا فكرة التقية لإخفاء مذهبهم خاصة في بلاد الأناضول وبين الأصول التتارية. وهذا المبدأ معروف قديمًا عند الشيعة، جرى استخدامه من قبل هؤلاء المتصوفة، فلا يظهرون عقيدة تأليه شيخ الطائفة[1].

وكان كثير من النصارى الروم قد دخلوا الإسلام وخاصة منهم أتراك في الأناضول ومربّين وأنطاكية والإسكندريون، فكانت عقيدتهم قد دفعتهم إلى تأليه الإمام علي بن أبي طالب حين دخلوا الإسلام، ونسبوا جميع المعجزات الواردة في النصرانية للمسيح عيسى، سواء في مولده أو تكلمه في المهد وإحيائه للموتى، ونسبوا ذلك إلى الإمام علي أو ابنه الحسين، كما أن المعجزات الواردة كذلك في حق السيدة مريم نسبوها إلى السيدة

(١) انظر: إيران الصفوية: د. أمير حسين خنجي (ص ٤٣- ٦٢)، القاهرة، دار طيبة للطباعة، وينقل الكاتب عن كتاب المثنوي لجلال الدين ابن الرومي (ص ١٧٦- ٢٠٥)، ويرى أمير حسين خنجي في كتابه (إيران الصفوية) (ص ٣٣٨) أن علماء الشيعة في القرن الثالث والرابع والذين دونوا المذهب الشيعي الإمامي كانوا كلهم عربًا كوفيين كأمثال الشيخ الصدوق المعروف بابن بابويه القمي صاحب كتاب (من لا يحضره الفقه) وكتاب (علل الشرائع).

فاطمة بنت رسول الله صلى عليه وسلم، وهذا يمثل التقاء بين بعض طوائف الصوفية والنصرانية والشيعة.

الجنيد الصفوي

وبعد مجيء الجنيد هو ومريدوه من أردبيل منحه السلطان العثماني أرضًا يقيم فيها نشاطه الصوفي، وكان ذلك بعد ٢٧ عامًا من إعدام بدر الدين، وفي هذه المرحلة تأثر الجنيد بمذهب البكتاش الصوفي المختلط بالأفكار الشيعية والنصرانية، إلى أن استشرى أمر أتباعه في المنطقة، واشتكى الناس إلى السلطان العثماني وخاصة علماء السنة، فسير له السلطان جيشًا قتل الجنيد وشتت أتباعه، فقام أتباعه بحمل ابنه حيدر وإحاطته بالرعاية، ودرس مبادئهم حتى كبر، وتزوج حيدر من امرأة نصرانية.

واستمرت الدولة العثمانية تتعقب حيدر وأتباعه إلى أن قُتل حيدر، فأحاط أتباعه زوجته بالرعاية، وكانت حاملًا، إلى أن جاءت بصبي اسمه إسماعيل، وقام القزلباش على رعايته ثم تدريسه مبادئ الغلاة الشيعة وكراهية صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن بلغ مرحلة الشباب، فدخلوا به مدينة أردبيل، وتجهزوا بعمل السيوف والتدريب العسكري، فلما بلغ التاسعة عشرة نادوا به ملكًا وشاهًا على إيران، فدخلوا المدن الإيرانية واحدةً بعد الأخرى، وعملوا السيف بجميع السنة، ونادوا بعقائد الشيعة، حتى ضج الناس من أعمالهم، فاشتكوا إلى السلطان العثماني، فجهز جيشًا غزا به إيران، ودحر جيش إسماعيل في معركة جال ديران، ولكن بعد رجوع الجيش العثماني إلى إسطنبول ظهر نفوذ الشاه إسماعيل مرة أخرى، وعملوا السيف فأخضعوا جميع المدن الإيرانية إلى سلطانهم، وبعد وفاة إسماعيل جاء ابنه طهماسب وبعده الشاه عباس، فكانت هذه الحقبة من الحكم الصفوي لإيران ساد فيها التشيع، وامتد نفوذه إلى العراق، وفي ثنايا هذا الكتاب تفصيلٌ أوضح لما حصل في هذه المدة من مؤثرات فكرية على هذه المنطقة، وما مضى يوضح صراحةً الالتقاء بين التصوف والتشيع، الذي وضح أمره في إيران على يد الشيعة الصفوية التي تبنت مذهب الإمامية الاثني عشرية.

نظرية الحلول عند الصوفية البكتاشية

سبق أن أوضحنا أن قبائل من التتار التي دخلت الإسلام إلى الأناضول ثم إلى إيران حاملة معها عقائد أسلافها دخلت الإسلام على يد طوائف وشيوخ من الصوفية البكتاشية، والذين مزجوا بين عقائد الصوفية والشيعة والنصرانية لكون هذه المنطقة تركية قد ورثت النصرانية منذ حكم الدولة الرومانية الشرقية في القسطنطينية (إسطنبول)، فكانت أهم أفكار الصوفية- فكرة الحلول- أي أن الله حل في كل شيء، ومنه حلول الله على ما يدعون بروح شيخ الطائفة الصوفية، واعتقد هؤلاء أن الله سبحانه وتعالى قد حل بالإمام علي وأولاده من بعده؛ ولهذا يدعي كثير من شيوخ الصوفية انتسابهم للرسول (صلى الله عليه وسلم) وإلى الإمام علي وأولاده، وينسبون إليهم نتيجة الحلول وصفة الألوهية والعصمة وتدبير الكون، وأن الله تعالى قد فوّض إليهم تدبير الكون.

وتشير أشعار هذه المنطقة إلى ادعاء شيخ الطائفة بما يقرب من أن الله يوحي إليه، فيقترب موقعه من موقع النبي فيعظمه أتباعه ويقبلون يده، وبعد مقابلته والسلام عليه يرجعون إلى الوراء، فلا يولون له الأدبار.

الروحاني وآية الله

قد أنتج التشيع البكتاش الصوفي في عهد الحكم الصفوي في إيران تركيزًا على وصف عالم الدين بالروحاني، أي الذي يستمد قواه من الروح، أو ربما فسرت بالروح الإلهية، ووصف بأنه آية الله، وهذا نوع من انتحال صفة الألوهية، واستعارة لبعض صفات الله سبحانه وتعالى للعالم الشيعي الإمامي في هذا العهد، وهذا نوع من الالتقاء بين مدارس الغلاة الصوفية وغلاة الشيعة الإمامية في إيران وفي العالم السني في بغداد، وتحت تأثيرات سلجوقية سنية وصف أبو حامد الغزالي بأنه (حجة الإسلام)، وهذا الوصف في القرن الرابع الهجري استعاره الشيعة أيضًا لوصف علمائهم بدرجة معينة من العلم أدنى من صفة آية الله، وصفة آية الله تأكد كونه متصلًا بالعالم الروحاني، أو الوصف بأنه حجة الله، وكل هذه المصطلحات في الأصل كانت في الديانة النصرانية سائدة في كتابة شروح الكنائس، الذي يبدو أن الشيعة قد استعاروها من تلك المصادر.

كما انتقلت إلى الشيعة الإمامية الصفوية في العصر الصفوي عن طريق علماء الشيعة العرب، الذين كانوا قد استوطنوا بعض سواحل البحر الأبيض المتوسط، وكان أجدادهم القدماء من الروم النصارى، ونخص بالذكر ما نقله علماء الشيعة العرب في جبل عامل في لبنان، والذي استقدمهم أو جاؤوا في عهد الشاه إسماعيل وابنه الشاه طهماسب كمحمد باقر المجلسي، الذي كتب في إيران كتابه الشهير الطويل (بحار الأنوار)، ومنهم أيضًا الشيخ الكركي وهو ليس إيرانيًّا، وإنما كان من شيعة لبنان من مدينة الكرك وغيرهم الكثير[1].

ولأهمية الأثر الذي تركه الصوفية البكتاشية على الشيعة الصفوية في إيران يحسن بِنَا أن نلقي نظرة موجزة فيما يأتي عن هذا الأثر.

الصفويون والدولة الصفوية في إيران

ينسب الصفويون إلى صفي الدين الأردبلي (من بلاد الديلم)، وكان هو ووالده على المذهب الشافعي، ودرس القرآن والسنة، ثم انخرط في حلقات الصوفية خاصة حلقة الشيخ (فرج الأردبلي)، وأهم ما تعلمه هو كيفية جلب المريدين وتنظيمهم، وقد اعتكف زاهدًا في جبل (سبلان)، ولكنه فيما يبدو لم ينجح، فغادر المكان إلى شيراز فلجأ إلى زاوية صوفية تسمى زاوية عبدالله بن الخفيف الشيرازي، وفي الوقت نفسه انضم في خدمة شيخ صوفي اسمه مير عبدالله الفارسي، ثم عاد إلى أردبيل محاولاً إنشاء مشيخة ولم يفلح، فغادرها إلى جيل، وهي قريبة من أردبيل، وكان ذلك سنة ١٢٧٦م، وسكن قرية كران واعتكف في زاوية الشيخ زاهد الجيلاني، الذي تمتع بحماية غازان خان المغولي حفيد جنكيز خان المعروف، الذي كان يدعو إلى خضوع الإيرانيين لحكم المغول، وتزوج

(١) انظر كتاب: (العلاقة بين الصوفية والإمامية) للدكتور: زياد بن عبدالله الحمام، (ص ٣٩- ٤٠)، الرياض، سنة ١٤٣٢هـ. ويرى أمير حسين خنجي في كتابه (إيران الصفوية) (ص ٣٣٨): أن علماء الشيعة في القرن الثالث والرابع والذين دونوا المذهب الشيعي الإمامي كانوا كلهم عربًا كوفيين، كأمثال الشيخ الصدوق المعروف بابن بابويه القمي، صاحب (من لا يحضره الفقيه)، و(كتاب علل الشرائع)، والشيخ محمد بن يعقوب الكليني صاحب كتاب (الكافي)، وكذلك الشيخ محمد بن الحسن الطوسي صاحب كتاب (التهذيب)، والشيخ الطبرسي وغيرهم كلهم كانوا عربًا، ولكنهم استوطنوا مدنًا فارسية، نسب بعضهم إليها، ويرى أنه قبل القرن الحادي عشر لا يوجد فقيه وعالم شيعي اثني عشري من أصل فارسي.

صفي الدين من ابنة شيخه زاهد، فجعله مريدًا له، وخليفة بعد وفاة شيخه سنة ١٣٠٠م، ورجع إلى أردبيل حاملاً لواء الدعوة بالمعروف والنهي عن المنكر.

كما اتجه صفي الدين في زاويته الصوفية إلى طريقة السماع والتغني والرقص الصوفي على الأنغام، مما جلب له المريدين من الشباب الذين كانوا يشيعون مبدأ التصوف القائم على فكرة الجبر، أي أن الإنسان مجبر على سلوك الطريق، ويجب عليه تقبل ما يأتيه، هذا كان يخدم سلطة حكام المغول السياسية في هذه المنطقة في القرن السابع الهجري؛ ولذا فقد شجع هؤلاء الساسة انتشار الحركات والزوايا الصوفية خدمة لأغراضهم.

فزاوية الشيخ صفي الدين في أردبيل وجدت الاهتمام الأكبر، وخاصة عند خواجة رشيد الدين فضل الله وزير السلطان المغولي غازان خان، وكان رشيد من يهود همدان، وكان يملك دكانًا للعطارة والأعشاب، وعن طريق ادعاء التطيب توصل لخدمة السلطان، حتى عينه وزيرًا بعد أن أسلم، ونقل عنه ممارسة أنشطة دينية؛ لأنه كان على معرفة بالتوراة، واستولى على الأراضي الزراعية وقسمها بين أولاده.

وسعى خواجة رشيد إلى كسب تأييد شيوخ الزوايا الصوفية، وخاصة الشيخ صفي الدين الأردبلي، الذي حظي من الوزير رشيد بالعطايا الوفيرة، التي مكنته من الإنفاق على زاويته ومريديه من الفقراء والمتطلعين للشهرة.

وبعد وفاة الشيخ صفي الدين سنة ١٣٣٤م قام ابنه صدر الدين مكان أبيه في الزاوية نفسها، وكان ذلك في مقدمة حكم السلاطين الأليخانيين من المغول.

وفي سنة ١٣٨٧م دخل الأمير تيمور فاتحًا أذربيجان بعد أن أخضع أقاليم إيران لحكمه بالقوة والقهر، ونهب الأموال التي قدم بعضها إلى زاوية الشيخ صدر الدين، وبارك أعماله وفتوحاته.

وفي سنة ١٣٩٩م غزا السلطان تيمور بلاد الأناضول (تركيا)، وأخضعها لحكمه، وجلب معه الكثير من الشباب التتار، وأهداهم إلى زاوية الشيخ صدر الدين في أردبيل،

حيث يقام على تدريسهم وتعليمهم، وهؤلاء أصبحوا فيما بعد نواة ما يسمى القزلباش أي أصحاب القبعات الحمر.

وفي سنة ١٤٤٧م جعل خلافًا بين أولاد الشيخ صفي الدين على رئاسة الزاوية المهمة في أردبيل وما قدره من أموال، فكانت الغلبة لجعفر الابن الأكبر، وهرب الجنيد من أخيه متجهًا إلى الأناضول، ومعه أولئك الشباب التتار من القزلباش، وفي الأناضول أقام الشيخ الجنيد زاويته الصفوية، مع أولئك التتار في بيته، فكان التتار يتشيعون لأسلافهم.

عقيدة القزلباش

في منتصف القرن السابع الهجري ظهر في الأناضول شيخ صوفي اسمه حاجي بكتاش (توفي سنة ١٣٣٧م) يدعو إلى الجهاد، وأنه سينصر بالرعب، فاجتمع له الكثير من التتار والأتراك بهذا القصد أو بقصد السلب والنهب، واتجه أول الأمر لمهاجمة القرى المسيحية، بعد أن ضعفت سلطة الدولة البيزنطية الشرقية في هذه الأجزاء، ونشر مريدو الشيخ طريقته الصوفية في الأناضول عن طريق تكوين الزوايا الصوفية، وأصبح الجميع يتبعون الطريقة البكتاشية.

وبرز من بين هؤلاء البكتاشية الشيخ بدر الدين الذي اتسع نفوذه، فأصبح قاضيًا في عسكره وزاويته الصوفية المجاهدة، وتجول في عدة مناطق طالبًا للعلم، وتعلم في الإسكندريون، ودخل في مذهب ما يسمى بأهل الحق، وهم شيعة متطرفون يؤلهون الإمام عليًّا رضي لله عنه.

ولما عرف السلطان العثماني توجهات هذا الشيخ عزله، ولكن اثنين من تلاميذه نشرا مذهبه، ونُفي الشيخ بدر الدين إلى مدينة أزنيك، وفيها قام بتأليف كتاب (الواردات) الذي احتوى على خليط بُني على أفكار صوفية، تدين بوحدة الوجود وأفكار غلاة الشيعة (أهل الحق) وعبادة الأجداد عند التتار القدامى.

وكان يعتقد في نفسه حلول روح الله فيه، وأنه معصوم، وأنه واجب الطاعة، ودعا أتباعه إلى الجهاد باسم الدين ووجوب طاعته؛ لأنه الولي المطاع، مثل ولاية الإمام علي رضي الله عنه!

فكثر مريدوه وانتشر مذهبه، فكان هذا المذهب هو الخميرة لجيش القزلباش، الذي زحف من هذه المنطقة على إيران، وكوَّن الدولة الصفوية.

قام بدر الدين بجمع أنصاره والثورة على الدولة العثمانية، ساعده في ذلك الشيعة البكتاشية، ولكن هذه الثورة قمعت وحوكم الشيخ بدر الدين، وأُعدم بالرغم من مشاركة الكثير من اليهود والمسيحين له في هذه الثورة[١]، وطاردت الدولة العثمانية مريديه، فاتجهوا إلى إخفاء عقائدهم في ظل التَّقِيَّة، وأصبح عداء السنة هو دينهم وهدفهم.

وخرج أتباع الشيخ الجنيد، الذي سبق أن قلنا: إنه مع القزلباش من أردبيل إلى الأناضول، ووجد في مريدي الشيخ بدر الدين السالف بغيته، لتنظيمهم وضمهم إلى صفوف الرشيدين البكتاشين، فاتخذت تلك القوى خاصة عندما تجمعت في الإسكندريون مع خميرة (أهل الحق) الشيعية الغالية.

وادعى هذا الشيخ الربوبية، وأنه من آل علي بن أبي طالب، وأسقط الفرائض الشرعية عن مريديه؛ ولذا فلا غرابة أن يرى الباحث فيما بعد كيف أن الشاه إسماعيل الصفوي، وهو حفيد الشيخ الجنيد قد ادعى تلك الدعاوى الباطلة نفسها.

وطردت الدولة الجنيد من الإسكندرون، وتنقل في أماكن عدة مع مريديه، حتى استقر الحال به في ديار بكر، ثم بدأ يهاجم في جيش مريديه الجراكسة المسيحيين بادعاء الجهاد واكتسح داغستان وبعض أذربيجان، ولكن الجنيد قتل في هجومه على رشوان وتفرق مريدوه، ولكنهم تجمعوا مرةً أخرى على زعامة ابن الجنيد المسمى حيدر، وهو كفل بمعونة من السلطان أوزون حسن في جرجان؛ لأنه ابن ابنته من الجنيد، وذلك بقصد الاستفادة من مريدي الجنيد، وتم له ذلك حين استولى على أقاليم في شمال شرق إيران، واستقر في هراة ولقب نفسه ملك إيران، وكان على مذهب الشيعة الزيدية.

وبقوة من هذا السلطان نصب الشيخ حيدر هذا وهو ابن تسع عشرة سنة شيخًا على زاوية صفي الدين في أردبيل، وتحلق حوله أولئك المريدون التتار في شتى النحل الإباحية الجهادية المعتمدة على السلب والنهب، يوجهها السلطان حسن كما يريد، وبالمقابل ترك

(١) أمير حسن: مصدر سابق، (ص ٤٠- ٥٧)، نقل عن إسماعيل صفي الدين أوزون: الدولة العثمانية، (ص ٤٠٨).

للشيخ حيدر حزبه كامل التصرف في أردبيل، وحملها إلى درجة تصنيع السلاح والاستعداد لاكتساح الأقاليم الأخرى، خاصة بعد وفاة السلطان حسن هذا سنة ١٤٧٨م، وهكذا كون الشيخ حيدر هذا جيشه من القزلباش، وكانوا يخفون عقائدهم الشيعية المغالية عن طرق التقية.

وبعد وفاة السلطان حسن تغلب ابنه يعقوب على حكم البلاد، وبدهاء شديد استغل حيدر هذا السلطان، فأخذ يبسط نفوذه في أذربيجان، ويقتل السنة وشيوخ الشريعة بدعوى خلافهم مع السلطان يعقوب.

وأمر الشيخ حيدر مريديه وجيوشه بلبس القلنسوة الحمراء باثني عشر حذية (القزلباش) لتمييزهم عن غيرهم، ودربهم على القسوة والشدة وصناعة السلاح والبطش الشديد بالخصم.

فما كان من هذه السياسة إلا الاصطدام أخيرًا بجيش السلطان يعقوب نفسه، وفي معركة فاصلة قتل فيها الشيخ حيدر، وتفرق القزلباش.

ودخلت أقاليم غرب إيران في صراعات بينها في هذه المدة انتهت بانتصار رستم بيك، الذي أعاد نفوذ القزلباش التتار من الأناضول، وأحيا زاوية الشيخ حيدر في أردبيل، وأعاد نفوذ القزلباش السابق لهذه المنطقة رغبة منه في استعمالهم لتأييده وبسط نفوذه.

وقام بتنصيب الشيخ علي الابن الأكبر لحيدر على الزاوية تلك، وأعاد إليه ممتلكات وأوقاف تلك الزاوية، ولكن القزلباش بعد استشراء أمرهم عادوا لقتال السنة والتسلط على علمائهم، فما كان من أمر علي إلا أن قتل في هزيمة من القزلباش الذين أخذوا أولاد حيدر: إبراهيم وإسماعيل، وأخفوهما في مكان آمن، ثم سلموا إسماعيل إلى كاركيا ميرزا علي حاكم لاهيجان، وكان زيدي المذهب، ومن هنا نشأ الطفل إسماعيل.

الشاه إسماعيل والقزلباش

ولد إسماعيل بن حيدر في أردبيل سنة ١٤٨٧م وأمه هي ابنة السلطان أوزون حسن المذكور سابقًا، وتعلم إسماعيل وهو ابن السابعة المذهب الشيعي الزيدي أولاً من المحيط المختفي فيه، ثم قام جملة من الشيوخ القزلباش بتعليم إسماعيل أسرار المذهب الشيعي

المغالي، ولقبوه بالشاه أي شيخ الطريقة أو السلطان، بادعائهم أنه من آل البيت، وكان معلموه الشيعة كلهم من التتر من أصول أناضولية، وقام القزلباش بإضفاء الصفات الكاملة على إسماعيل وعلى كونه (المرشد)، ونفخوا من روح الانتقام لأبيه وجده اللذين قتلوهما أهل السنة. وصدقهم الشاب وكمن الحقد والكراهية ضد السنة، وأن أهله ظلموا كما ظلم الإمام الحسين عليه السلام، وأدخلوا في ذهنه وروعه أن كل سني ما هو إلا ظالم وسفاح، يجب الانتقام منه والحذر منه.

ثم نقل المعلمون الشيعة إسماعيل إلى مريديه من لاهيجان إلى أردبيل بحجة زيارة قبر الشيخ صفي الدين جده، ومن هنا بدأ بالدعوة ومناداة القزلباش في الأناضول وغيرها بالتوافد عليهم، وأصبح لإسماعيل شأن كبير.

يتخفى آلاف القزلباش تحت ستار السياحة الصوفية الدينية، فإسماعيل اعتبر وريث شيخ طريقة صوفية، يجتمع حوله المريدون وهو أمر شائع، قد لا يثير الأهداف السياسية المخبأة.

إن غالبية هؤلاء القزلباش هم من التتار من صحاري الأناضول ومن قبائل شتى، وقام القزلباش هؤلاء بالنهب والسلب للقرى المحيطة بهم، ثم اتسع عملهم إلى الأقاليم الغربية وبرا بأذربيجان وباكو.

وأسقطوا حكم شروت نشأت سنة ١٥٠٠م، ثم سيطروا على تبريز وما حولها وسكان هذه المنطقة من السنة الشافعية يتحدثون اللغة الأذارية، ولكن الشاه إسماعيل أجبرهم على اعتناق مذهب الشيعة بسبب ما رُبِّيَ عليه من كراهية للسنة منذ طفولته من قبل أمه ثم من المحيطين به.

لقد أشبع إسماعيل منذ طفولته وشبابه كراهية السنة، ولقن جميع أدبيات الشيعة القديمة التي ذكرت في كتب الشيعة حول كراهية قتلة الحسين وعلي بن أبي طالب، وكراهية الصحابة والخلفاء الراشدين، وكان يطلب من السنة في المساجد التبرؤ من أبي بكر وعمر وعثمان، وإلا قُتل السني من القزلباش. وقد نظم في المدن التي استولى عليها

إسماعيل فريقًا يسمى ب(الدعوة إلى البراءة من أهل السنة) وإعمال القتل بمن يرفض ذلك، ساعده في ذلك أصحاب الأهواء والمجرمون، الذين وجدوها فرصة للنهب والسلب.

واتجه الحقد والقتل على علماء السنة وهدم مدارسهم ومساجدهم أو تغييرها إلى الشكل المناسب لفكرهم المنحرف، وانهال كثير من التتار وأصحاب المطامع على إسماعيل، والتحقوا بأعماله الشيعية، وادعوا أنهم (أصحاب الحق) فسلب أموال السنة بدءًا من أذربيجان وأردبيل وماحولها من مناطق، ثم اتسع الخرق شيئًا فشيئًا، وأقاموا بسبي شباب السنة ونسائهم على اعتبار أنهم كفار، وأجبروهم على شراء أنفسهم أو بيعهم كرقيق، ومن لم يتبرأ من السنة واعتنق التشيع فمصيره القتل[١].

وبدأ تساقط المدن والأقاليم ابتداء من أصفهان وكرمان وقم وكاشان ولم يستعص على إسماعيل الصفوي غير كردستان (من إيران)، فكانت جبالاً عصية، قتل فيها القادة الذين أرسلهم الشاه إسماعيل، ولم ينتشر فيها التشيع الصفوي، وسارعت بعد ذلك الدولة العثمانية لحمايتهم مما عزز انفصال هذا الجزء من كردستان عن إيران.

وفي سنة ١٥٠٨م هاجم الشاه إسماعيل العراق، وكان تحت حكم باريك بيك الذي هرب إلى دولة المماليك في الشام وأعمل القزلباش السيف في أهل بغداد وخاصة السنة وعلماءهم، وهدموا جامع الإمام أبي حنيفة الذي سبق أن بناه السلاجقة، وتركز جمعهم في بغداد وباقي المدن الرئيسة، واحتل القزلباش خراسان ثم هراة، وأعملوا فيها السيف، وطلبوا كعادتهم من السنة البراءة من الصحابة، ومن لم يستجب خاصة من العلماء يقطع جسده أو يحرق، كما فعلوا بالعلامة التفتازاني الحنفي المشهور بعلمه وورعه، فقد جيء به من السجن وطلب منه إسماعيل أن يكفر أبا بكر وعمر والصحابة، فأبى ذلك فأمر القزلباش بتقطيعه وحرقة، وهكذا فعلوا بالكثير من علماء السنة في المدن الرئيسة الإيرانية، وأخضعوا إيران بالإرهاب والرعب من شنآنهم[٢].

(١) د. أمير حسين خانجي: مصدر سابق، (ص ١٠٠- ١٢٤)، وانظر أيضًا: الشيخ يوسف البحراني: الكشكول، (٣٠٩/١)، بيروت ١٩٨٦م. وصباح الموسوي: في الطائفة الصفوية، (ص ١٧٥)، ط١، ٢٠٠٧م.

(٢) صباح الموسوي: في الطائفة الصفوية، (ص ١٧٥)، مركز الناقد الثقافي، ١٢٠٩م.

و كان الإيرانيون يطلقون على العرب (السيد)، ويطلق على غيرهم بـ (الموالي)، وكانوا يعدون الشاه إسماعيل سيدًا من آل علي بن أبي طالب.

ويبدو أن هذه النظرة استمرت عند الإيرانيين، حيث يعد الإيرانيون اليوم أن أكثر رجال الدين الشيعة هم من العرب أصلًا، وأن البلاء العصبي الديني جاءهم من العرب.

بعد أن خضعت أكثر الأقاليم الإيرانية للشاه إسماعيل الشاب، وكان عمره آنذاك اثنتين وعشرين سنة اتجه إلى حياة اللهو والشراب والصيد، وكانت الدولة العثمانية في عهد السلطان بايزيد مهادنة لإسماعيل الذي نعم بالرخاء.

حينما دب النزاع بين أبناء السلطان بايزيد على السلطة، تحرك البكتاش الشيعة في بلاد الأناضول موالين للقزلباش وللشاه إسماعيل، ولكن حينما استقرت السلطة العثمانية للابن بايزيد سليم اتجه في جيش عثماني كبير معهم البنادق والمدفعية، ودخل الجيش العثماني بقيادة السلطان سليم نفسه إيران سنة ١٥١٤م، والتقى الجيشان عند جالديران، وهزم الشاه إسماعيل وقزلباشه وجرح إسماعيل واختفى في حفرة متظاهرًا بالموت، وقام أحد جنوده الذين يشبهونه بلبس ملابسه، وتقدم للسلطان سليم مسلمًا نفسه فظنه هو الشاه إسماعيل، و يبدو أن السلطان سليم خدع، وأمر بسجن هذا الرجل على أساس أنه إسماعيل، ولكن إسماعيل بعد أن جن الليل هرب بعيدًا، ولجأ إلى غار في جبل قرب همدان، واعتلت صحته ووهن عزمه بعد مقتل معاونيه ورجاله، وتفرقهم عنه بطلب النجاة، وقتل كثيرون في هذه المعركة، ودخل السلطان سليم تبريز، وطهرها مما بقي من القزلباش، وظن السلطان العثماني أن مهمته في القضاء على الشاه إسماعيل وقزلباشه قد انتهت، وأن التشيع قد دحر في إيران، فرحل عائدًا إلى بلاده واستقر مدة في أماسيا، ولم يكن في إيران سلطة مرشحة لحكمها، حيث شتت القزلباش وقتلوا رجالها، وفي هذه الثغرة استعاد القزلباش نفوذهم شيئًا فشيئًا.

وعاد الشاه إسماعيل إلى تبريز مع بعض أنصاره، وقام بالوقيعة مرة أخرى من مساعد السلطان على إعادة السنة لتبريز وفوض الأمر إلى ميرزا حسين الأصفهاني الذي

أصبح هو المتصرف بأمره، ولم يعد الشاه إسماعيل يهتم بسياسة البلاد والعباد وانكب على المتعة والشراب.

وأخذ إسماعيل في الكتابة إلى السلطان سليم مستعطفًا إياه وخاضعًا له في وقت كان سليم يفكر في غزو أوروبا واستعادة الأندلس، وكاتب الشاه إسماعيل شارل الخامس إمبراطور إسبانيا وألمانيا وهولندا وجزر إيطاليا على التحالف ضد الدولة العثمانية، والرسالة حملها القسيس بطرس الماروني، أصله من جبل عامل بلبنان[١].

وبدل الاستعداد من قبل السلطان سليم لغزو أوروبا تحول إلى إخضاع الشام ومصر لحكمه، خشية تآمرهم مع الشاه إسماعيل عليه، وبعد أن نجحت حملته تلك اتجه سنة ١٥٢٠م إلى غزو إيران مرة أخرى لإسقاط الشاه إسماعيل، ولكن لما وصل أدرنة مرض ومات، أما الشاه إسماعيل فقد كان منكبًّا على الخمر، ويعجز عن تسيير أمور الدولة، وتركها إلى من فوضه بإدارتها، وضعفت إلى أن توفي عن سبع وثلاثين سنة، أي سنة ١٥٢٤م، وقام القزلباش بتنصيب ابن إسماعيل البالغ عشر سنين الملك، وتولى القزلباش إدارة أمور الدولة، فجلبوا في هذا العهد الفقهاء الشيعة اللبنانيين من جبل عامل إلى إيران، حيث تولوا تعضيد التأسيس بشكل عقائدي ديني مغالٍ جدًّا، فأقاموا بكتابة عقائد الشيعة من المؤلفات القديمة من أمثال ما قام به المُلا محمد باقر المجلسي.

أما في تركيا فقد جاء السلطان سليمان القانوني بعد أبيه، وكانت سياسته مهادنة إيران، حيث أطلق سجناء القزلباش، وأعادهم إلى إيران سنة ١٥٢٠م، واتجه إلى تنظيم جيشه لغزو أوروبا، وفي سنة ١٥٣٢م توجه سليمان القانوني بجيش لمحاربة القزلباش في إيران، فضم أذربيجان ودخل تبريز، وأخضع هذا الجزء للدولة العثمانية، وهرب القزلباش بطهماسب إلى قزوين بعيدًا، ورجع السلطان سليمان من همدان إلى بغداد، مطهرًا تلك الأرض من أوكار القزلباش.

(١) د. أمير حسين خانجي: مصدر سابق، (ص ٢٤٧)، يوسف البحراني: الكشكول، (٣١٠/١).

وقد أدخل فقهاء الشيعة القادمون من لبنان إلى الصفويين الإرث الشيعي القديم، وطوروا بعضًا منه تحت عوامل مسيحية، كانوا قد اقتبسوها من مسيحيي لبنان في جبل عامل.

فقد أدخلوا موضوع البراءة الناشئ من تسميتهم بالروافض، فهم يرفضون ولاية أبي بكر وعمر وعثمان، ويتبرؤون منهم، وكذا فقد نشأت في العهد الصفوي جماعات البراءة، التي تجوب الحارات والمدن، لحث الناس على البراءة من الصحابة، وإلا قتلوا.

ومن هنا يتضح للقارئ كيفية التقاء التصوف بالتشيع الاثني عشري، واستخدام التصوف في أول الوقت ستارًا للتخفي عن إظهار معتقدات الشيعة المرفوضة من المجتمع السني في إيران، فقد كانت إيران قبل هذه الأحداث سنية على الإطلاق، إلى أن أجبروا على التشيع بالصفة التي شرحناها، كما نشير إلى انتشار مقولات الديانة النصرانية التي حملها علماء الشيعة القادمون من جبل عامل.

أثر الشيعة العرب على الصوفية

أدخل الشيعة العرب فكرة (السيد) نسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وأدخلوا علامة خضراء في عمامة القزلباش إشارة إلى ذلك، وتحولت كلمة مولى العريقة التي لا يحسن غير العربي نطقها إلى كلمة مولا، ثم إلى ملا أو منلا. علامة المتعلم والفقيه أو من يجب أن يواليه لنسبه لعلي وآله.

ثم في عهدٍ ثان أدخلوا فكرة كلمة الرجل الروحاني، أي المتصل بالله العالم الورع الملكوتي العارف، ومنها أيضًا كلمة (آية الله) أو(حجة الله)، التي أصبحت درجات يسير فيها المتعلم.

وبعد وفاة الشاه طهماسب اشتعلت حرب بين القزلباش كلاً يريد تنصيب أحد أولاد طهماسب، ولكن الشاه (إسماعيل الثاني) وصل إلى الحكم بعد مقتل إخوته، وكان من أول أعماله إيقاف أعمال القزلباش وأعمال هيئات البراءة وسب الصحابة والكف عن قتل السنة واتهامهم بالكفر.

ولهذا وقف له فقهاء الشيعة الصفوية والقزلباش، وأسقطوا حكمه، وقتل بعد أن حكم أكثر من سنة، وأجلس القزلباش أخاه محمدًا الكفيف على كرسي الحكم، فكان الحكم لهم ولعلماء الشيعة الصفوية طيلة عشر سنوات، جاء بعده الشاه عباس الصفوي، الذي خدمته قوة بريطانيا الصاعدة في الخليج العربي، والذي اسُتخدم ضد الدولة العثمانية كي يتسع نفوذ بريطانيا في الهند وعدن.

وفي عهد الشاه عباس الأول تدفقت على إيران موجة جديدة من علماء الشيعة اللبنانيين إضافة للعرب مثل محمد التقي العاملي (المدعو بالمجلسي الأول)، والذي قد درس على الشيخ البهائي، والملا عبدالله التستري، وقد توفي سنة ١٦٥٩م، ودفن في جامع أصفهان، وله شرح كتاب تهذيب الطوسي. كما برع في هذه الحقبة ابن المجلسي الأول وهو محمد باقر المجلسي (الثاني).

وازداد نفوذ علماء الشيعة الصفوية وخاصة محمد باقر المجلسي[١] الموجود بأصفهان الذي كتب في هذه الآونة كتابه المشهور (بحار الأنوار) بثلاثة وعشرين مجلدًا، طبعت في إيران على الحجر، وانتشر تداولها، وضم هذا الكتاب جميع ما طالته يداه من كتب الشيعة القدماء التي كتبت منذ بداية القرن الثالث الهجري، وخاصة مؤلفات ابن بابويه القمي والشيخ المفيد وتلميذه محمد بن الحسن الطوسي، ومن قبلهم محمد بن يعقوب الكليني، وقسم كتابه على أبواب، وأضاف على ما كتبه علماء الشيعة القدماء جملة من الخزعبلات والخرافات، التي يرفضها العقل السليم إضافة على الأكاذيب التي لم يتورع هو وأمثاله من كتاب هذه الحقبة في الكذب على الصحابة والخلفاء كنعمة الله الجزائري.

كما قام باقتباس ونقل التراث المسيحي عن المسيح، وألصقها بعلي والحسين عليهما السلام، كما استعار ما ذكره المسيحيون عن مريم ووصفه لفاطمة الزهراء عليها السلام، وقد قرأت هذه البحار كلها ونقلت منها نصوصًا في كتابي (جذور التشيع)، لمن أراد المزيد والاطلاع عليها.

(١) أجداد محمد باقر المجلسي، كانوا من السنة في أصفهان، وذكر منهم أبو نعيم الأصفهاني صاحب حلية الأولياء المشهور.

وقد وعد المجلسي بأن سلطة الحكام الصفويين ستصل الى الإمام المهدى الموعود ظهوره، والكتاب هذا عمومًا يعكس رأي الشيعة الإمامية الاثني عشرية الغلاة؛ لأنه ينضح فيما كتب بالكراهية والكذب والسب للسنة والصحابة والخلفاء الراشدين مع الأسف، وهو ما يريده الصفويون والقزلباش.

إن من أسوء الظواهر السياسية في العصر الصفوي هو تحالف الصفويين مع الأوروبيين الطامعين في الخليج العربي، فقد تحالف الشاه إسماعيل مع البرتغال واعترف لهم بالسيادة على مضيق هرمز وبحر العرب في مقابل مساعدة البرتغال في الحرب ضد الدولة العثمانية، كما تعهد البوكرك للشاه إسماعيل بمساعدته في الاستيلاء على الأحساء والقطيف ومناصرة الشيعة فيها، وقد مهد هذا إلى استيلاء البريطانيين على الخليج بعد طردهم النفوذ البرتغالي.

الطريقة الختمية من الصوفية

هي الطريقة الصوفية المنسوبة إلى الشيخ محمد بن عثمان بن أبي بكر بن عبدالله المرغني -الشهير بالختم-، ويقصد به عندهم أنه خاتم الأولياء، وقد ولد في الطائف سنة ١٢٠٨هـ ودرس العلوم الشرعية بمكة، وانخرط بطرق صوفية عديدة، فأخذ عنها بعض أفكاره، فأنشأ زاوية صوفية له فيها مريدوه بمكة المكرمة، وبعث أولاده يبشرون بطريقة الصوفية بأرجاء من البلاد الإسلامية، وقد ترك ابنه الحسن أثرًا بالغًا في السودان، فكان أول من نشر هذه الطريقة في السودان، وقد توفي الشيخ ودفن بالمعلا بمكة ١٢٦٨هـ.

وأهم أفكار الختمية هي:

أولاً فكرة وحدة الوجود التي سبق تعرضنا إليها عند فرق الصوفية عمومًا، ولكن زاد الختمية على هذه الفكرة ما ذكروه عن النور المحمدي ومقتضاه: أن الله قد قذف في أصلاب الرسول صلى الله عليه وسلم وأصلاب آله من الأئمة نورًا يستهدون به دون سائر الناس، ومن أفكارهم أيضًا- الخلوة الصوفية للمريد، التي يطلب فيها المدد من الرسول صلى الله عليه وسلم وجبريل ومشايخ الطريقة.

وقالوا بوجوب الاستدلال بأئمة آل البيت، ويتسم الختمية شأنهم شأن بقية الصوفية بانفتاحهم وتقبلهم أعضاء أو أفكار من ديانات أخرى أو أفكار مادية.

وقد انتشرت هذه الطريقة في السودان وأريتريا ومصر، وهناك طرق صوفية أخرى لها علاقة بالفكر الشيعي الإمامي جزئيًّا: كالطريقة النقشبندية والتيجانية والعزمية وجماعة العشيرة المحمدية.

أفكار صوفية متأثرة بعناصر أجنبية ومشابهة لما عند الشيعة الإمامية

أولاً: ادعاء الصوفية إحياء الموتى

يدعي كثير من الصوفية قدرة شيوخهم على إحياء الموتى، من ذلك ما ذكره الشيخ الدباغ «أن الأولياء لهم القدرة على إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى»، كما نقل مثل ذلك عن القشيري، وقيل: إن سهل بن عبدالله ذكر «أن الذاكر لله على الحقيقة لو همَّ أن يحيي الموتى لفعل»، كما نقل عن أحمد التيجاني «أن الولي بعد الفتح يقدر أن يفعل ما يريد في كل ما أراد: فيحيي الموتى إذا شاء ويناديهم...».

ونسب لأبي يزيد البساطي درجة من الضعف في المقدرة على إحياء الموتى فادعى أنه لا يحيي الموتى إلا بالجس، كما فعل المسيح.

ونقل الشعراني كثير من ادعاءات الصوفية في إحياء الموتى وخروجهم من قبورهم أو من قيامهم من فراش المرض الطويل أو إرجاع الروح إليهم بعد غرقهم في البحر، وتعدى ادعائهم إحياء موتى البشر إلى إحياء موتى الحيوانات، من ذلك ما نقله القشيري: أن بدويًّا مات جمله، فتلا الشيخ دعاءً خاصًّا فقام الجمل حيًّا، ونقل أيضًا عن قدرتهم على إحياء موتى الأشجار وقدرتهم على إثمارها[1].

ثانيًا: ادعاء الصوفية بحفظ الوجود أو الكون

يدعي أحمد التيجاني: أن أقطاب الصوفية وأوتادها هم حفظة الوجود، وأن نسبة القطب إلى الوجود كنسبة الروح إلى الجسد، فلو زالت روحانيته من الوجود لانعدم الوجود كله،

(١) محمد أحمد لوح: تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، دار الهجرة (١/١٤٩- ١٥٣)، ١٩٩٦م.

وفسر قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الأحزاب: ٧٢، أي حملها الإنسان الكامل الذي يحفظ الله به الوجود، وبه يرحم جميع الوجود، ونقل عن الشيخ المتبولي أنه قال: «لو لم يحمل القطب وجماعته البلاء عن العالم لتلاشي العالم في لحظة»، ونقل الشعراني عن جماعة من الصوفية، نقلوا عن الشيخ الدرديري أنه ادعى أن الله بالأولياء والأقطاب يمسك الأرض[١].

ثالثًا: ادعاء الصوفية معرفة الغيب

يدعي الصوفية أن الأولياء لهم القدرة على معرفة الغيب واستجلاء أخبار السماء وما في اللوح المحفوظ، فنقل عن الشيخ الدباغ بأن الولي المجذوب ربما غاب وعيه عن الأرض فأضحى ينظر إلى الحور العين، وهو يتمايل في غيبوبة، ونقل الشعراني عن الشيخ قوله: «ما أخذت العهد على مريد حتى رأيت اسمه مكتوبًا في اللوح المحفوظ وأنه من أولادي».

ونقل عن الشيخ الدباغ أن الولي له قدرة على معرفة ما في باطن الأرض، وأنه رأى في الأرض الثالثة أقوامًا في بيوت ضيقة ونار محرقة وآبار غامقة وعذاب دائم، وادعى أيضًا مشاهدة الجن، وأين يسكن الشياطين وما يفعلون[٢].

رابعًا: عصمة الأولياء عند الصوفية

يرى الصوفية أن طاعة المريد لشيخه واجبة؛ لأنه معصوم من الخطأ، فيرى الشعراني أن الكمال من الأولياء لا يرد عليهم إلا الحسن من القول والفعل، فهم منزهون عن القبيح، ونقل عن التيجاني أن الأولياء كالملائكة لا يصدر عنهم إلا ما هو حسن، ومن شروط الولي عند القشيري بلوغه إلى درجة الحفظ من الوقوع في الذنوب، والحفظ والعصمة، وعند الدباغ أن الولي بعد بلوغه درجة الفتح الكبير لا يصدر منه ذنب وفعل قبيح، ونقل عن التيجاني أن الولي إذا تجلى له الخالق ومنحه كشف الأسرار، فقد أضحى معصومًا من جميع المعاصي بكل وجه وبكل حسبان.

---

(١) تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، مصدر سابق، (١/١٧٤).

(٢) تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، مصدر سابق، (١/٢١٠-٢٣٠)، (١/٣٦٠-٣٦٣-٤١٨).

خامسًا: وجوب طاعة الولي عند الصوفية

يرى جميع الصوفية أنه يجب على المريد طاعة شيخه في جميع الأحوال، ودونما قيد، فيقول أبو المواهب الشاذلي: «إن الأستاذ هو من كمل الدوائر وانطوى فيه علم الأوائل والأواخر» «كما يرى الجيلاني أنه من الواجب على المريد ترك مخالفة شيخه في الظاهر، وترك الاعتراض عليه في الباطن». ونقل عن الشيخ الكليني إلى وجوب الانطراح بين يدي الشيخ «كغسيل الميت بين يدي مغسله»، ويتخذ الصوفية من عمل الخضر الذي ذكره الله في القرآن في مسألة قتل الولد واعتراض نبي الله موسى- عليه السلام- وعلى خرق السفينة وإقامة الجدار حجة على شيوخهم، لا يأمرون إلا بما هو حسن، وإن كان في الظاهر عملاً قبيحًا أو حرامًا. ولا يجوز للمريد الرد على شيخه أو الاعتراض عليه، فعندهم الراد على شيخه كالراد على الله عز وجل.

سادسًا: خروج بعض الصوفية عن الشريعة

بعض أولياء الصوفية ممن ادعوا وصولهم إلى درجة الاتحاد مع الخالق بعد مرورهم بسلم الدرجات إلى أن يصبحوا أوتادًا أو أقطابًا، حينها يدعي بعضهم إباحة خروجهم عن التكاليف الشرعية، فلا صلاة ولا صيام؛ لأن هذه التكاليف قصد بها حصول التقوى لعدم الوقوع في الحرام، وهم قد وصلوا في ادعائهم إلى درجة العصمة. والنزاهة بل أجازوا لأنفسهم اقتراف المحرمات؛ لأن قواعد الشريعة قصد بها حكم العوام، بل إن تعاليم الصوفية تحذر المريد من الاعتراض على شيخه، وإن ظهر له فعل القبيح بهذا المعنى، كما نقل عن الشعراني.

ويرون أن الشريعة لم تكتمل، وأن الصحابة قد بينوا بعضًا وأخفوا بعضًا، لعلهم يرون ذلك من المحاسن، وقد أكد الفخر الرازي على هذه الدعوة بأنها باطلة، وأن أصحابها إنما هم على دين مزدك.

فينسب إليهم مثلاً أنهم لا يحتاجون إلى طهارة الوضوء؛ لأن الطهارة عندهم هي طهارة القلب، كما أنهم يتهاونون في أداء الصلاة وحضور الجمع، ويرون أن ذلك من شأن العامة، فقد حكى الشعراني عن شهاب الطويل «أنه كان ينادي خادمه وهو في الصلاة، فإن لم يأته مشى إليه وعنفه».

ونقل الشعراني أن الشيخ الشريف المجذوب كان يأكل في رمضان، ويقول: إن ربي أعتقني. ونقل الشعراني عن الشيخ علي بن محمد وفا: أنه وجه أحد مريديه بزيارة قبر الولي الصوفي، وأنه أولى من قيامه بأداء الحج.

كما أن موقف الصوفية سلبيٌّ من الإنفاق على الفقير وَذي الحاجة؛ لأنه في دفع المال على الفقير حسب دعواهم أن في هذا اعتراضًا على مشيئة الله، فقد نقل الشعراني عن علي الخواص قوله لأخيه: «إياك أن ترق لمن أفقره الله، فإن الله لم يفقره إلا لحكمة».

وتجرأ بعض الصوفية إلى حد تبريرهم اقتراف المحرمات، وأن المريد يجب أن لا يبتئس مما اقترفه من محرمات طالما أنه ما زال متعلقًا بمحبة شيخة.

سابعًا: الحلول والاتحاد عند الصوفية

إن أكثر الصوفية يعنون بالحلول أن الله قد حل في مخلوقاته، ولكن اختلفوا في الكيفية؛ فمنهم من يرى أنه حلول جواري، أن أحد الجسمين ظرفًا للآخر، ومنهم من يرى أن الحلول امتزاج الأجزاء بعضها ببعض كامتزاج ماء الورد بالورد، وهذا المعنى يطابق ما عليه النصارى السريان بحلول اللاهوت بالناسوت، ويعنون به حلول الخالق بجسم السيد المسيح، وهذا ما عليه النساطرة من النصارى أيضًا، وقد تأثر بهذا المفهوم بعض الشيعة الذين قالوا بحلول الخالق بالإمام علي.

ونشير بهذا الصدد إلى أن فرقًا من غير الصوفية كالجهمية وبعض الأشعرية يَرَوْن أن الله بذاته في كل مكان.

أما الاتحاد: فيعنون به امتزاج الشيئين بعضهما ببعض، فيصبحان شيئًا واحدًا، وهذا اتحاد خاص، يشبه ما عليه النصارى اليعقوبية من امتزاج اللبن بالماء.

ثامنًا: وحدة الوجود عند الصوفية

ويعنون به أن الله واحد، يوحدون بينه وبين الموجودات، وفكرتهم أن الله وتلك الموجودات أمر واحد؛ ولذا عبروا بذلك بوحدة الوجود، وتقتضي هذه الفكرة عندهم أن الله والموجودات شيء واحد، أي أن الله عندهم في كل مكان وفي كل موجود بعينه، وهذا المعنى هو ما انتهى

إليه ابن العربي والحلاج من الصوفية، وذكروا أن للاتحاد معنيين: اتحاد خاص يعنون به اتحاد الخالق بالمخلوق المفرد. ومعنى عام: ويعنون به أن الخالق متحد بالوجود كله.

تاسعًا: صفات للأولياء عند الصوفية

من مظاهر تقديس الأولياء عند الصوفية أنهم وصفوهم بصفات لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى، ووصفوا علم الشيخ بأنه يحيط بجميع الموجودات حوله، فهو يعلم ما فوقه وما تحته وعن يمينه وعن شماله، ويعلم ذلك فردًا فردًا، كما قالوا: إن شيخهم يعلم ما فوق اللوح المحفوظ في السماوات العُلى.

وشبه التيجاني شيخ الصوفية بالخالق سبحانه وتعالى وصفاته، فكما أن الله سبحانه وتعالى ينظر ويسمع ويبطش ويقدر في آن واحد، فهذه الصفات عينها يقوم بها أيضًا في الوقت نفسه وبجميع المفردات الشيخ الصوفي؛ لأنه قد اتحد بالخالق، فأصبحت صفات الخالق هي عين صفات ذلك الشيخ المخلوق، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، والسؤال هنا كيف يحصل للشيخ الصوفي الانتقال لهذه الدرجة من الصفات ومعرفة الغيب كما يدعون.

لقد قرروا بأن ترقي الشيخ بسلم ودرجات التصوف يصل به إلى درجة عليا، إما أن يطلب من شيخ عالم قبله أن يمنحه تلك الصفة العليا أو أن شيخه يتبرع له بعد أن يرى منه ما يستحق من تلك الصفات، وقد ذكروا أن شيوخهم الذين وصلوا إلى درجة الأبدال أو الأقطاب، هؤلاء وصلوا إلى أعلى الدرجات، فهؤلاء منحوا كثيرًا من السائلين أو من تلاميذهم تلك الدرجات العُلى، فأصبح الشيخ الفلاني عارفًا عالمًا بالغيب قادرًا على شفاء المرضى وتحقيق المعجزات، وهذه الدرجة عندهم كما يقولون: قد تكتسب عن طريق الطلب الشفاهي، أو عن طريق النظر، أو عن طريق السر بإذن طالبها.

كما ذكروا قصصًا حصلت فيها تلك المنح عن طريق شربة ماء أو شربة قدح من اللبن، ويرى الشيخ التيجاني كيفية حصوله على درجة القطب، فقال: إنه رحل إلى القاهرة، حيث التقى شيخه الكردي، فقال: أمنحك أعلى من تلك الدرجة. كما يدعي.

وتتعدد الأغراض والغايات التي من أجلها يسألون النبي صلى الله عليه وسلم، فمن الأمور التي كانت تهمهم وهم على خلاف مع المحدثين حولها: أن هنالك أحاديث مبثوثة

ضعيفة في متنها، أو ربما أيضًا في رواتها، ولكن معانيها تعزز ادعاءات الصوفية، فهذا ابن عربي ادعى أنه شاهد النبي صلى الله عليه وسلم وسأله عن أحد الأحاديث التي كان ابن عربي يشتبه بها، فعزز صحتها النبي صلى الله عليه وسلم.

كما يدعي ابن عربي على خلاف ما يراه المحدثون من ضعف تلك الأحاديث، أو الأمر بالعكس بأن هناك أحاديث رويت في معاني ضد الصوفية وتقديس الأشخاص فيها، فيعمدون إلى أن يدعوا مواجهة النبي جهرةً لا في المنام، فيقر لهم بصحتها على خلاف رأي المحدثين.

وهذا أحد الأغراض التي سلكها الصوفية لترويج معتقداتهم المخالفة لما عليه الأمة، وكل فرقة من فرق الصوفية تدعي أن شيخها هو خاتم الأولياء، فكما أن للأنبياء خاتمًا وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد ادعوا أيضًا لأوليائهم أنهم قد ختموا الشريعة والسلوك الذي ابتدعوه لأنفسهم ولأدعيائهم، وقيل: إن أول من ادعى فكرة ختم الولاية الشيخ الحكيم الترمذي، وغرض الصوفية من هذه الدعوة أنهم أرادوا احتكار الولاية لشيخهم دون الآخرين، الذين فيما يبدو أكثروا في هذا الادعاء. والأمر الثاني أن غرضهم حينما يقررون أن شيخهم هو خاتم الأولياء، فإنما على بقية الأولياء في عهده وجوب طاعته والانقياد له.

ففي ذلك يَرَوْن رفعة شأن فرقتهم، وهذا أحد الأغراض والسبل التي سلكوها، وقد وصل بهم الحال إلى أن يعدون وليهم الصوفي في مقام مثل الأنبياء أو ربما فضلوا الأولياء على الأنبياء، وعللوا ذلك التفضيل بأن وليهم يستمد علومه من الله سبحانه وتعالى، بينما الرسول يستمد علمه من الوحي بواسطة الملك.

كما يعتقدون أن رؤية الولي أكثر إحاطة وشمولاً من رؤية النبي، باعتبار النبي مقيد بالوحي، والولي أكثر إحاطة وشمولاً في علومه واستشرافه؛ ولهذا يرى الصوفية أن الدين لم يكتمل على يد الرسول، وإنما وليها الذي يدعونه هو الذي يكمل هذا النقص، واحتج الصوفية لرأيهم هذا برواية الخضر مع النبي موسى، فقالوا: إن علم سيدنا الخضر أوفر وأشمل من علم النبي موسى، كما يتضح من الآية القرآنية.

وهذه المعاني التي سردناها واضحة فيما كتبه ابن عربي في كتابه خاصة (الفتوحات المكية)[١].

عاشرًا: ادعاء الصوفية شفاء المرضى وإحياء الموتى

يدعي شيوخ الصوفية أن لهم القدرة على شفاء المرضى بطرق مختلفة: كذكر الله، والصلاة على نبيه على المريض، بشكل لم يرد في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، كما من طرقهم أنهم يقرؤون على كوز ماء فيشربه المريض أو يعطون المريض أنواعًا من الأعشاب أو الدهانات، وكل ذلك لتحقيق أغراضهم، وخاصة أخذ أموال الناس بالباطل، وخاصة من هو في حالة ضعف، حيث يضطرونه إلى دفع المال الكثير، لطلب الشفاء من المرض، وكتب الصوفية مليئة بالقصص والحوادث التي يدعون فيها أن مرضى يأتون إلى شيوخهم بعد عناء طويل من المرض، فبمجرد أن يمسه الشيخ بعصاه أو يقول له قم فيقوم، صاحيًا من مرضه، بل ادعى بعض الصوفية أنه سمع امرأة مريضة تستغيث بعبدالقادر الجيلاني، فصاح بها: اتركي الجيلاني، ونادي على أحمد التيجاني. ففعلت ذلك، وصاحت: يا أحمد التيجاني شافني. فشفيت، كما يزعمون، وهذا إضافة إلى باب ادعائهم شفاء المرضى، فهم يتنافسون فيما بينهم على القدرة على الشفاء وسرعته، ونقلوا لنا: أن الشيخ ولد حسونة جاءته امرأة ببنتها المريضة، فطلب منها أن تحضر أوقية من الذهب، ففعلت ودفعت بالذهب إلى الشيخ وطرحت البنت تحت قدمي الشيخ، ثم قال لها: قومي. فقامت صحيحة معافاة كما يدعون.

وهذه من الأساليب التي يستولون فيها على أموال الضعفاء والفقراء وضعاف العقول، كما ذكر أن الشيخ ولد حسونة هذا جاءه أعمى يطلب الشفاء، فيخيره الشيخ بين أن يجعله يبصر في الدنيا أو أن يدخل الجنة مبصرًا. فأصر الرجل أن يصبر على عماه أملاً في جنة الخلد مصابرًا على عماه في دنياه، وهذا نوع من الهدوء عن تحقيق المعجزة التي يدعونها.

وهذا شيخ آخر قيل: إن عبده جاء بابنته المريضة والمشرفة على الموت إليه، وطلب من الشيخ شفاءها، فأعطاها قليلاً من الماء، ولكنها مجته لأنها لا تسطيع، وأنها قريبة

(١) تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي: مصدر سابق، (٢/٣٠).

من الموت، فتركها الشيخ وذهب إلى خلوته في تلك الليلة، ثم خرج فقيل له: البنت صحت. وقالت: إني معافاة. فقال: إني قد قضيت الليلة أتنازع مع ملك الموت حول موتها، إلى أن تركها ملك الموت لي، فرجعت روحها، فيا سبحان الله على هذه الجراءة العظيمة التي يتجرأ بها شيوخ الصوفية على المنايا وعلى الكذب والادعاء.

ونقل الشعراني عن أحد شيوخ الصوفية أن ولده أحمد مرض مرضًا شديدًا، ثم مات فحاول إحياءه، فحيا ذلك الولد، وعاش أحمد بعد ذلك مدة ثلاثين سنة كما يدعون.

حادي عشر: الرجعة في الفكر الصوفي

ويقصد بها الرجوع إلى الدنيا بعد الممات، يعتقد بها كثير من الصوفية مشابهين بذلك ما قالت به الشيعة الإمامية، والرجعة عند الصوفية على عدة أحوال:

١. رجعة الرسول صلى الله عليه وسلم، ويدللون على ذلك بأن شيوخهم قد يخاطبون الرسول يقظة أو يحضر لمجالسها، ويرى الشيخ الدباغ أن كثرة اشتغال المريد بصورة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتخيله يحصل له فيما بعد حقيقة رؤيته يقظة، وهذا يعني أنهم يؤمنون برجعة الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه حي. ونقل الشعراني عن أحد شيوخهم أنه كان يلتقي برسول الله صلى الله عليه وسلم وقتما أراد، وكذلك قال الشعراني: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سائر في كل مكان توجد فيه شريعته. وهذا القول لا يدل فقط على الرجعة، وإنما أيضًا يشير إلى فكرة الصوفية إلى وحدة وجود الخالق مع الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث يوجد الخالق مع الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يوجد في كل مكان. وينقل الشعراني عن العديد من شيوخ الصوفية أنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدد أسماءهم، كما يدعي بعض مشايخ الصوفية أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحضر معهم مجالسهم، ويشاركهم ولائمهم، كما فصل ذلك الشعراني. كما اعتقد بعض الصوفية أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعطيهم بعض القواعد الشرعية، فقد نقل عن الدباغ في تفسير الأحرف السبعة الواردة في القرآن الكريم، قوله لسائله: «سمعت من الأسرار ما لا يكتب ولا يُطاق»، فهم يَرَوْن أن أولياءهم يكملون الدين، الذي لم يكتمل في رأيهم، وذلك

بطرق مختلفة؛ منها سؤالهم عن بعض الأمور الشرعية من النبي صلى الله عليه وسلم كما يدعون.

٢. كما يعتقد الصوفية برجعة بعض الأموات من غير الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد نقل الشعراني بنفسه قصة خروج السيد البدوي، وأنه طبخ له ولزوجته ذات ليلة. وادعى الشيخ أن طنطاوي جوهري أن الخليفة هارون الرشيد قابله بعد موته، وطلب منه أن يكتب كتابًا يدافع فيه عن تهمة الزنى، التي أُلصقت بالعباسية أخت الرشيد، فحقق له الطلب[١].

الاثنا عشر: بناء قبور الأولياء والاستغاثة بها

ورد في تاريخ السلاجقة قديمًا وقبل إسلامهم أنهم كانوا يعبدون الأجداد، ويبنون قببًا على قبورهم، يزورونها ويدورون حولها، فلما دخل السلاجقة في الإسلام أدخلوا معهم بناء القبب والمساجد، وزعموا أنهم من طائفة السنة، وأزالوا النفوذ السياسي للشيعة البويهيين في القرن الرابع الهجري، ففي عهدهم انتعش التصوف.

وانتعش في إيران والعراق خاصة وأصبحت الطرق الصوفية تبني مزارات، وتتفنن في هندستها وبنائها وتقضي تعاليمهم زيارة هذه القبور، وشد الرحال إليها، والطوف وقراءة الأدعية، والتبرك بمسحها أو أخذ قطع من القماش المغطى فوق القبر.

كما أحلوا النذور والذبح لأصحابها، وكل ذلك مخالف للشرع، ومع ذلك فقد أورد الصوفية في كتبهم الدفاع عما أسلفنا، مبررين ذلك بحجج واهية، وبقصص معجزات اخترعوها لتضليل الناس، والأدهى من ذلك أنهم يدعون أن أصحاب القبور من أوليائهم يشفعون لهم ويقضون حاجاتهم، ويشفون مرضاهم، كما سبق أن أوضحنا.

ولتعزيز ادعاءاتهم يَرْوون لأوليائهم الكرامات والمعجزات، التي تصل إلى إبراء الأَكْمَه وإحياء الموتى، كما سبق ذكره.

(١) تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي: مصدر سابق، (٣٤/٢).

من ذلك ما كتبه الشيخ السراج الطوسي في كتابه (اللمع) سرد فيه ادعاءات من وقائع حصلت بسبب الطلب من الولي فلان أو فلان، وأورد الشيخ القشيري في رسالته جملة من الخوارق والمعجزات التي ادعى حصولها، كما ملأ أبو نعيم الأصفهاني كتابه المشهور (حلية الأولياء) بقصص وحوادث كثيرة لدعاوى حصولهم على الكرامات والمعجزات وإغاثة طلاب الحاجات، وقد سبق أن أوردنا كثيرًا من تلك الدعاوى، التي ذكرها الشيخ الشعراني في كتابه (الطبقات الكبرى)[1].

(١) تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي: مصدر سابق، (٢/٢٩٤).

الفصل التاسع

تسامح المسلمين مع أهل الديانات الأخرى

الأسس التي بُني عليها التسامح

إن قواعد الإسلام قد أرست للتسامح مع غير المسلمين من الديانات الأخرى، وأصل هذه الأسس قد ورد في الآيات التالية:

١. قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: ٦٢.

٢. قال تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ آل عمران: ٦٤.

٣. قال تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ الكافرون: ١ ـ ٦.

٤. قال تعالى ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ﴾ البقرة: ٢٥٦.

٥. قال تعالى ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ النساء: ٩٠.

٦. قال تعالى ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ الأنعام: ١٠٤.

٧. قال تعالى ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ الأنعام: ١٠٨.

٨. قال تعالى ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ الأنفال: ٦١.

٩. قال تعالى ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ يونس: ١٠٨.

١٠. قال تعالى ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ يونس: ٩٩.

١١. قال تعالى ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ النحل: ١٢٥.

١٢. قال تعالى ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ العنكبوت: ٤٦.

١٣. قال تعالى ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ الكهف: ٢٩.

١٤. قال تعالى ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ الممتحنة: ٨.

إن هذه الأسس القرآنية بنيت على قاعدة الرحمة في التعامل، وكلمة الرحمة وردت في القرآن الكريم تسع مئة مرة، ولسنا بصدد التحقيق لما ذكره بعض العلماء؛ لأن بعض الآيات السالفة قد نسخت بآيات السيف والحرب.

ولكن أكثرية العلماء على فكرة كون آيات التسامح هي الأصل، وآيات السيف والحرب هي استثناء؛ فالحرب لا تمارس إلا في أحوال استثنائية كرد العدوان أو رفع الظلم والبغي.

كما أن أسس التسامح بنيت في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنها الأحاديث المتعلقة مع أصحاب الديانات من اليهود والنصارى وغيرهم، وهذه الأحاديث أكثر من أن تحصى.

كما أن سيرة الخلفاء الراشدين وخاصة (عمر بن الخطاب) ونصوص العهدة العمرية لنصارى بيت المقدس تعكس غاية التسامح بل الإحسان إلى الكافة، وخاصة أهل الكتاب، ولكون سرد هذه الأحاديث الطويلة أو الأحداث في عهد الخلفاء الراشدين المتعلقة بالتسامح تخرج عن المقصود من هذا البحث، وللاختصار نحيل القارئ الكريم لما في الصحيحين وكتب السنن، ومن أمثلة تلك الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم: «تعافوا تسقط الضغائن بينكم» كما ورد في كنز العمال. وقد ورد في صحيح البخاري أن أعرابيًّا بال في المسجد، فمنع الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة أن يعنفوه، وطالبهم بإراقة ماء على بوله.

والأحاديث التي تأمر بالرفق والإحسان والتسامح في المعاملة كثيرة لا تحصى. والإسلام يعترف بنبوة موسى وعيسى وبقية الأنبياء، في حين أن هؤلاء المخالفين لا يعترفون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ويعتقد المسلمون أن من لم يؤمن بأنبياء الله فهو كافر.

أهم نتائج التسامح

١. من أهم نتائج التسامح في الإسلام على الصعيد النظري أو العملي هو انتشاره بشكل سريع، أسقط إمبراطوريتين كبيرتين في وقت واحد، ودخل كثير من أهلها إلى الإسلام.
٢. استخدمت الدولة الإسلامية غير المسلمين، وخاصة من أهل الكتاب في المناصب الرسمية، وليس هنا مجال تعداد الأشخاص من النصارى ممن تولوا مناصب في الدولة الإسلامية.

obeikan.com

٣. بسط السلم والوئام ليس فقط بين المسلمين ومخالفيهم، وإنما أيضًا بين أصحاب الديانات الأخرى على اتساع رقعة الإمبراطورية الإسلامية.

٤. إن أهم نتائج التسامح التي تعنينا في بحثنا هذا هي ذلك الامتزاج والتداخل بين المسلمين وغيرهم، حتى إن الشريعة أباحت للمسلم الزواج من اليهودية أو النصرانية، وأن تبقى على ديانتها، ومن هنا كان لهذا التسامح أثران: إيجابي وسلبي؛ فالأثر الإيجابي هو اقتراب معتنقي تلك الديانات إلى فهم حقيقة الإسلام، والدخول فيه طواعية، أما الأثر السلبي وهو المهم في بحثنا هذا، ذلك أن كثيرًا من العرب والمسلمين تأثروا بمعتقدات تلك العناصر الأجنبية، ونقلوا أفكارهم من حيث يدري بعضهم أو لا يدري، ومن هنا كانت عنايتنا في البحث أولاً عن الجسور التي عبرت منها تلك العناصر الأجنبية إلى الشيعة خاصة في البحث.

Obeikan.com